مَجْمُوعَةٌ قَصَصِيَّةٌ

أَوْلِيَاءُ كَاذِبُونَ

مُراد مَاهر

عنوان الكتاب : أَوْلِيَاءُ كَاذِبُون
المؤلف : مُراد مَاهر
المراجعة اللغوية : عبد الهادي عباس
الإخراج الداخلي : رشا عبدالله
تصميم الغلاف :عبد الرحمن حافظ
رقم الإيداع : ٢٧١٩١ / ٢٠١٦
ردمك : 978-977-6549-19-7
الطبعة الأولى: ديسمبر 2016

المدير العام : هاله البشبيشي
مدير المبيعات : شريف الليثي

دار تويا للنشر والتوزيع

dartoya2015@gmail.com
دار تويا للنشر و التوزيع Dar.toya
@Dar_Toya
Dar.toya
(+2) 01150483084 - (+2) 01000706014
٣٥ شارع النصر – المعادي – القاهرة – مصر

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار

مَجْمُوعَة قَصَصِيَّة

أَوْلِيَاءُ كَاذِبُون

مُراد مَاهر

دار تويا للنشر والتوزيع

إهداء

إلى كل من ظن نفسه يومًا نبيًا واصطدم بغير ذلك...

لا تحزن عليك، فالنبوة ليست دائمًا بالمباشرة التي تعلمناها.

إنها تحمل بين طياتها قدرتك على الاختلاف، موهبتك في التأثير، وقدرة ما تضيف من تجديد أصيل، وفي كل الأحوال سيظنك الناس مجنونًا.

أكمل... فأنت تستطيع أن تكون مجنونًا

مراد ماكي

١

الجَدُّ الأوَّلُ يَبْدَأ

كتاب التاريخ هو الأكثر ظلمًا ...
ذلك أنه لم يحترم سوى الفعل والفاعل،
ودائمًا ما يغفل أو يتجاهل المفعول به.

عندما جاء أمرُ الإلهِ الأعظم بمثولهم مجتمعين في حضرته، انتفضتْ بلدتُنا بأكملها، كبارُها وصغارُها، أسيادُها وعبيدُها، لم يعتدْ فرعون أن يأمر باستقدام كلِّ هذا العدد من علماء القرية أمامه، مع قطع كل هذه المسافة وبهذه السرعة.

أنباءٌ تتردد على ألسنة الحرس القادم لاصطحابهم مفادها خلافٌ بين الإله وولده الذي يعتنق السحر ويمارسه على أبيه الرب الأعظم.

همس الناس في آذان الناس: "إن كان الرب لا يستطيع أن يُهذب عقوق ابنه فكيف يحكم ويتحكم في العباد، وإن كان الرب قد قرَّر أن يستعينَ بأعيانهم وكبار علمائهم، فأين مفهوم الربوبية التي حاول الملك فرعون وآباؤه من قبله تأصيله في عقول وقلوب عبيدهم".

في النهاية تبقى كل التعليقات في حيز الهمس المكبوت والخواطر المُعتمة.

قيل بأن الملك طلب الآلاف من السحرة من كل أرجاء الوطن.

معروفٌ عن رجالات بلدتنا بأنهم أمهر السحرة بين أقرانهم، بمقدورهم تحريك الجبال إن شاءوا، وبناء المعابد دون عناء أو رجال إن شاءوا، وعُرف عنهم بين أقرانهم بأنهم

يُحبـون المـال، ويسـعون دائمًـا لصنـع الخـير، ولا يسـتخدمون قـوة سـحرهم إلا في خـلاص النـاس أو فـك أسْر النفـوس مـن قيْـد الـشر "إلا مـن صبَـأ منهـم عـن الحـق".

في الواقـع كان كل رجـالات قريتنـا يشـتغلون بالسـحر ويتقنونـه، كل مولـود في قريتنـا يُخصَّـص لـه قبـل تسـميته عصي وحبـل، هـي أدوات سـحره والنبتـة الأولى التـي عليـه أن يُنميهـا بالتعلـم والتدبـر وذكائـه الشـخصي، ومـا أن يبلـغ الصبـي مطلـع الرجولـة حتـى يبـدأ في تعلـم قواعـده بفخـر وإتقـان.

اسـتعد رجـالُ البلـدة لتلبيـة أمـر الـرب الملـك، إلا مـن اثنين، كنـت أولهـما، والآخـر كان الأكـبر سـنًّا بـين الجميـع، وكنيتـه العجـوز، ادَّعـى المـرض وقُـرب الأجـل وانعـدام القـدرة عـلى قطـع المسـافات أو حتـى ممارسـة الطقـوس الواجبـة للسـحر.

يُـردد أهـل بلدتنـا في كل محفـلٍ أننـي أمهـر شـبابها في صنيـع السـحر رغـم كـوني الأصغـر سـنًّا، تنبَّـأ لي الكثـيرون بتسـيُّد زعامـة الصنعـة ليـس فقـط في بلدتنـا، بـل في كل بلـدات الدولـة.

قـررتُ الهـروب، حملـت عصـاي فـوق حُلمـي وهربـت مـن البلـدة قبـل أن يتمكـن منـي رسُـل فرعـون، اختفيـت عـن أعـين الجميـع، وتتبعـتُ قومـي، المُسـاقين إلى الميـدان الأعظـم، المأموريـن بهزيمـة المـارق، الآملـين في مكافـأة الملـك، توقـف بهم

الحـراس في ميـدان الزينـة "سـاحة الإلـه الأعظـم"، حيـث يتجمع النـاس ويجتمعـون مـن كل أرجـاء الدولـة يتأهبـون للاحتفـال بأعيـاد الربيـع والفيضـان مزدانـين بالألـوان والمُبهجـات.

***

لسـتُ أدري تحديـدًا مـا الـذي دفعنـي للهـرب، الـكل يعلـم أننـا بلـدةٌ مأجـورةٌ، أمرنـا فرعـون بتعلـم السـحر منـذ زمـنٍ ليسـتخدمنا، لم يعـترض آباؤنـا، لا يسـتطيع أحدهـم الاعـتراض مـن الأسـاس، لكـن أن تعيـش في قريـةٍ كل رجالهـا سـحرة فهـو أمـرٌ كفيـلٌ بـأن يصنـع منـك شـخصًا مرتابًـا مـن كل شيء، مُهـدَّدًا مـن كل جانـب، تحتـاج دائمًـا لتطويـر أدواتـك لتصبـح أكـثر حِرفيـةً وتأثـيرًا في محيطـك، وأكـثر أمانًـا لتسـتكملَ مسـيرة العيـش.

سـمعتُ همسًـا يتجـوَّل عـلى ألسـنة الجمـوع بـأن ابـن الـرب العـاق يسـتخدم السـحر.

إذن فهـو أقـوى مـن أبيـه، أو ربمـا يسـتحق الربوبيـة أكـثر مـن فرعـون ذاتـه، أعلـم أنـه ليـس مـن صُلبـه، لكـن مـا دام تبنـاه الـرب فهـو إذن مُشـبَّعٌ بنـوره.

انخرطـت مختفيًـا وسـط العـوام مترقبًـا، وقـررتُ الانتبـاه والتحفـز، والتدخـل إذا اسـتدعى الأمـر.

أبي وعمي وجدي وخالي وأخي من بين السحرة الذين يستخدمهم فرعون في هزيمة ولده، ربما يعجزون، وربما أظهر أنا من بين الجميع لأنتصرَ لاختلافي وتفردي وأنال ما وعد به الرب من نعيم لغالب الكافرين، موقنٌ بأن الناس حينها سيوقرونني، ويهابون جميلي على بلاط العرش، ويتوددون لعلمي حتى يتعلموا.

يظهر الرب من فوق الناس والميدان، تتناثر الورود والعطور في كل الأرجاء، يجلس على عرشه الأكبر، ينحني الناسُ ما بين ساجدٍ وراكعٍ، يصطف كبار الدولة ووزراؤها في جانب، والكهنة وخدمة الآلهة في الجانب المقابل، بينما يقف أهلي في صدارة المشهد، مصطفِّين في انتظار الإذن الملكي بالبدء في هزيمة الكافرين.

يظهر أخيرًا ابنُ الرب اللقيط، مُحاطًا بالمئات من أتباعه ومريديه والمؤمنين بما قال ويُقال، ويُحيط بالجميع حراس الملك وجنود جيشه.

الملك يُشير بصولجانه لبدء المناظرة السحرية ما بين قومي والابن الصابئ.

دقائق، وتُشرق النتائج، ينتصر الابن العاق، يترنح الأهل، يغتاظ فرعون، ينقلب السحر على الظالم، يُعلن الأهل اتباعهم دين الكافر بفرعون ويتبعونه، يقتلهم فرعون

مـن فـوره، يُطـارد العـاق ومريديـه حتـى حافـة البحـر، يترجَّـل المتمـرد السـاحر عـلى صفحـة المـاء بناسـه وأتباعـه "هـو بـلا شـك سـاحر عـلى نحـو لم نتعلمـه"، يلاحقـه فرعـون بجنـده على الجـسر المسـحور، فينهـار الجـسر ويغـرق الإلـه ومـن تبعـه.

أقـف عـلى الشـاطئ أحـاول اسـتيعاب الخيـال، تقذفنـي الأمـواجُ بملايـين القطـع الذهبيـة الغارقـة مـع الإلـه الغـارق، أتقبَّـل تتابـع الأحـداث وكأني أعلمهـا مسـبقًا أو معتـادًا عـلى مثلهـا، أهـرب مهـرولًا تجـاه بلدتنـا محمـلا بالـثروة الناجيـة.

يسـتقبلني النسـاء والصبيـة والأطفـال وعلى رأسـهم العجوز، أُخبرهـم بمـوت الأهـل، ويُخبرونـني بمـا نمـى إلى علمهـم عـن مـوت الإلـه وجنـوده غرقًا.

قـرَّر العجـوز إعـلاني كبـيرًا للبلـدة وأكـثر أهلهـا حكمـة إذ رفضـت تلبيـة نـداء الغـارق وأبقيـت عـلى ذريـة السـحر المقدسـة، أعلـن العجـوز كذلـك أني زوجٌ لـكل نسـاء القريـة ونـادى في النـاس مُبـشرًا بـأن بلادنـا ستسـعد بتعديـل اسـمها لتحمـلَ اسـمي "كومانـور".

بنيـت بجـزءٍ مـن أطنـان الذهـب معبـدًا كبـيرًا، ودعـوتُ النـاس لعبـادتي، لم يعـترض أحدهـم، فبلادنـا باتـت بـلا إلـه..... حتـى حـين.

٢

الكَامِلُ المنقُوصُ جبرًا

كتاب التاريخ هو الأكثر فقرًا ...
ذلك أنه تقبل صاغرًا كمًا كبيرًا
من المُسلمات منذ البداية الأولى.

- (كومانور)....

كم هو مرهقٌ أن تكون ملكًا، كم هو مُقلقٌ أن تكون إلهًا.

عُدت إليهم بتلال الذهب.

رأيتُ كل شيء في رحلة تتبعي للمناظرة الكُبرى بين فرعون وأهلي من جانب، وبين ابنه بالتبني الكافر به من جانبٍ آخر، ابتنيتُ معبدًا كبيرًا مُرصعًا بالمعدن الأصفر النفيس، وأمرت الجميع بعبادتي، وأطاعني الناسُ بلا تفكير أو تردد، فالذهب وسيلة إقناع غالبًا ما تُجدي في إخضاع العقول "إن وُجدت".

ثمة اتفاقٌ ضمني تأصَّل بيني وبين "العجوز الساحر"، ذلك الذي رفض مباراة السحر الكبرى في ميدان الزينة الأكبر، ارتضى بألوهيتي وارتضيت أن أهبه المال والسلطان، فصار وزيري الأول وواحدًا من أغنى أغنياء الكون.

"التأصيل للمُلك شيء مُرهقٌ ومليئ بالمخاطرة وعثرات الفشل، الحفاظ على الذهب يحتاجُ لليقظة والحرص والريبة من كل شخص وكل شيء، أما أن تؤصل لألوهية ومُلك ومالٍ في آنٍ واحدٍ فهو أمرٌ لا يستطيعه سوى إله... وأنا في حقيقتي لستُ كذلك".

***

أمرٌ إلهي :

"من كومانور الأعظم إلى وزيره الأول "العجوز الساحر"، المأمور بانتخاب رضيع من أهل البلاد، جميل الوجه، عظيم النسب، يتولاه الكهنة والحكماء والعلماء بالحماية والتعلم وانتقاء كل ما يخصه ويُعينه ليتهيأ تمامًا لمهمته المقدسة".

***

إذا كانت الأرضُ مِلك يميني، والعباد تحت أقدامي، والأنهار والبحار تسير وتفور لإرضائي، فكيف لا أخاطب قاطني السماء ليعلموا بأن هناك إلهًا جديدًا تم اختياره ودعمه بالذهب من إله الآلهة الأعظم، ليرث ألوهية الخاسر الأحمق فرعون.

نعم.. قرَّرت أن أخاطب أهل السماء لاتباع مذهب أهل الأرض والبدء الفوري في عبادتي.

ربما كان الأمر برمته حيلة/فكرة ابتكرتها لتمكين ألوهيتي من عقول الناس، موقن بأن انشغال العامة بأمر مخاطبة السماء لعبادة إلههم الجديد سيُرسِّخ مفهوم التقديس ويمنع أية محاولة للنقد أو التفكير.

في الواقع لم أكن على يقينٍ كاملٍ بقدرة السِّحر على خلق وسيلةٍ حقيقيةٍ لمخاطبة السماء، لكن الألوهية حتمًا لا تعرف صعبًا ولا تقتنع بالمستحيل.

وعلى الرغم من تيقني التام بأني لستُ إلهًا كما أوهمتُ الناس مستعينًا بكنوز الأرض التي أتتني صاغرةً، لكني في الوقت ذاته أؤمن بأن إله الكون الأوحد "والذي بديهية التفكير والتخمين يرتقي بعرشه فوق حدود الأرض وربما السماء"، باختياره لي لأرث أنهار الذهب ومُلك الغارق فقد وهبني بشكلٍ أو بآخر انتدابًا لألوهيته على الأرض، ولستُ أنكر كذلك بأن فكرة مخاطبة السماء قد تبدو له تمردًا مني إذ أتطاول على الحيز المُطلق لربوبيته.

أعتقد أنني أستطيع لاحقًا أن أشرحَ له هدفي من حيلتي وأقدم له من جديدٍ قرابين الخضوع والخنوع من إلهٍ منتدبٍ إلى إلهٍ مُطلَقٍ، وأظنه غفورًا.

***

كعادة الكومونايون، ما بين حقبةٍ وضحاها يُفاجَأون بإطلالة جدهم الأكبر كومانور من باطن أرضهم، إما بمكافأةٍ من كنوزه المدفونة أو برسالةٍ مُشفرةٍ تحملُ ما تحمله من تأويلاتٍ تكفي لملء مُجلدات.

من تحت أنقاض بيت الشيخ مليم الحلباوي، وجد العمال جداريةً منقوشًا عليها بلغة القدماء رسالة من الرب كومانور إلى عباده القابعين في السماء محمولةً على أجنحة رسوله المُلقب بـ "طائر الرب".

"السلام على عبادي في الأعالي.

أبعث إليكم برسولي الأقرب ومعبودي الأغلى والأوفى والأنقى، حملت على أكتافه رسائلي، وفي قلبه دعوتي، وفي عقله أحكامي وجنتي وعذابي، احملوه على أعناقكم، وافعلوا ما يأمركم به باسمي وبمشيئتي، وأتوا إليَّ صاغرين عابدين، واحمدوا لي فضلي عليكم أن أهديتكم عطفي وهديتكم إلى سبيلي".

وكعادة الكوموناريون يلجأون للكرماني أفندي أو الباشكاتب ليترجموا لهم نقوش الأجداد.

***

(الرسول).....

لم أعرف لي اسمًا ولا نسبًا، وعيت على الدنيا لا أعرف سوى الوزير الأول "العجوز الساحر" وبجواره حكماء الدولة يُعلمونني ليل نهار، ولقاءٌ شهري أمثُل فيه في حضرة الملك كومانور، يطمئن على صحتي وحالي وتعلُّمي فنون الحياة والقوة والسحر.

الجميع يهيئونني لانتظار المهمة المقدسة، تلك التي خُلقت لأجلها، واصطفاني الملك ووزيره للاضطلاع بها، لم يُسمح لي الاختلاط بالعوام، ولم يُسمح لي كذلك برؤية البلاد أو الدروب أو النهر، تعلمت وجود كل شيء، وعرفت كل

المعـروف عـن كل شيء، وأتقنـت السـحر نظريًّـا ولم أمارسـه عـلى أحـدٍ، ولا عـلى شيء.

أخـبرني الوزيـر "العجـوز السـاحر" بـأني ابـن الإلـه المُختـار، وحامـل رسـالته إلى أهـل السـماء، وأخـبرني بـأن موعـدي قـد اقـترب.

***

(كومانور).....

أعـترف بـأن فكـرة دعـوة السـماء للامتثـال إلى معبـود أهـل الأرض كانـت مُزحـةً صبيانيـةً في بدايتهـا، أطلقتُهـا عابثًـا، وأعـترفُ بـأن الأمـر بـات واقعًـا لا أجـرؤ عـلى العـدول عنـه، وأن النـاس قـد حوَّلـوا الفكـرة العابثـة إلى مـشروعٍ قومـي، وحلـمٍ وطنـي، وترنيمـةٍ عقائديـةٍ، وأعـترف أننـي الآن في مـأزقٍ شـديد الخطـورة.

وأعـترف بـأن المزيـد مـن التسـويف لم يعـد مقبـولًا، وأن عـليَّ البـدء في إعـلان القـرار.

***

نادى المنادي في الطرقات والمعابد والحقول والأسواق:

"الإلـه كومانـور الملـك الأعظـم يأمـر الجميـع بالحضـور في ميـدان الاحتفـالات الملكيـة صباحًـا لحضـور حفـل وداع طائـر

الـرب ورسـوله إلى أرض السـماء، إيذانًـا بتحقيـق حلـم عبـاده بإخضـاع أهـل السـماء لمُلكـه وعظمتـه".

ابتهـج النـاس، وتعانـق العـوام، وانتفـض الحلـم السـاكن في أرحـام الأمـل والشـوق بداخلهـم، بينـما وقـف الوزيـر العجـوز مبتسـمًا بخبـثٍ ولا مبـالاة.

***

نادى المنادي في الطرقات والجوامع والغيطان والأسواق:

"يـا أهـل كـوم النـور، العمـدة فهيـم والأعيـان داعيـين أهـل البلـد تِمًّـا عـلى وليمـةٍ كبـيرةٍ في السـاحة الفاضيـة علشـان نسـتقبل بعثـة الخواجـات الـلي جايـين مـع الحكومـة يفكـوا طلاسـم رسـول الجـد كومانـور للسـما".

واسـتقبل النـاس الدعـوة بخليـطٍ عجيـبٍ يحمـل بعضًـا مـن الاسـتهزاء وشـيئًا مـن الفضـول وكثـير مـن الاسـتهجان وتبنـى شـيخ الجامـع تكفـير الفكـرة مـن أساسـها، لكـن في النهايـة اتفـق الجميـع عـلى حتميـة مشـاركة بطونهـم فيـما تقدمـه ولائـم الأثريـاء.

***

(كومانور).....

اكتمل الجمع، وخرجتُ عليهم بكامل أُبهتي وصولجاني وزينة عرشي، وكشفت النقاب عن رسولي الذي حجبته عن أعينهم لسنوات، ألبسته رداءً من ريش نعام أبيض، وأطلت قامته بوقوفه على قدميْن خشبيتيْن يغطيهما الريش، تجعله يعلو أنظار الناس بأمتار، وصنعت له جناحين يشبهان أجنحة الصقور.

وكان لابد وأن أبدأ مراسم التفويض.

قرأتُ على رسولي أمام الناس رسالتي إلى أهل السماء، وأمرته بالذهاب برفقة الوزير العجوز إلى أعلى بقاع الجبل المقدس، حيث تتصل السماء بالأرض في عيون الناس، وأن يفرد جناحيه فوق الجبل لسبعة أيام حتى يطيرَ صاعدًا إلى عبادي في الأعالي.

***

(العجوز الساحر)....

اصطحبتُ الرسول إلى أعلى الجبل، وأسقطته من فوقه بأمر الملك، وعدتُ إلى الناس أحكي ما لم يحدث، وما أمرني به كومانور العظيم، وأشرفت بعدها على نقش التأريخ على الجدران والجداريات والقبور.

***

تجمَّع الناس قاصدين ذبائح الأعيان، وانتظروا المؤتمر الصحفي للخواجات "فقط على سبيل المجاملة".

حكى الخبراء ما ترجموه واستنبطوه واستنتجوه من حكاية طائر الرب، رسول الإله كومانور الملك إلى عباده من أهل السماء، مكتوب على جداريات الجد الأكبر:

"وفرحت السماء بطائر الرب المُختار، فرد أجنحته البيضاء في مهب القمر، فارتفعت به قمة الجبل الأعظم، ودنت له السماء بمن عليها، وتقابلا في بحر الفضاء المقدس، وتلا الرسول رسالة الرب، فخضعت السماء، وانهمر المطر، وامتلأ النهر حتى طفت البلاد على تلال الخير، فتجلى كومانور للسماء ملوحًا، حتى انحسرت المياه، وأصدر أمره الإلهي ببقاء الرسول في السماء حتى يصله أمر العودة ولو بعد آلاف السنين".

وبينما استخفَّ الناسُ بما سمعوه، وتحوَّل الأمر برمته إلى مادةٍ خصبةٍ للمزاح، امتلأت السماء عن آخرها بسربٍ من طيورٍ بيضاء لم يعرف أحدهم تصنيفًا أو توصيفًا لنوعه من قبل، يمتد حتى ما وراء امتداد البصر، وخشعت العيون رهبةً وتحفزًا، حتى صاح أحدهم :"دول ولاد الرسول يا جهلة، لعنة جدكو كومانور هتحط عليكم يا غجر".

انـصرف النـاس هربًـا، واختبـأ آخـرون أيامًـا وراء جـدران منازلهـم، والبعـض فضَّـل قبـور الأجـداد التـي اكتشـفها الخواجـات حتـى تقيـه هجمـة اللعنـات.

اسـتمرَّ الأمـر أيامًـا، حتـى أذَّن شـيخ الجامـع لصـلاة الجمعة، ولم يجبْـه أحد.

أعاد الأذان، لم يخرج أحد.

فـأذَّن الشـيخ في النـاس: "يـا بلـد، السـت أم كلثـوم ماتـت، وهنصـلي صـلاة الغايـب عـلى روحهـا".

فخرج الناس.

وبدأت اللعنات.

٣

تَسْلِيمُ وَتَسَلُّمِ العَبَث

كتاب التاريخ هو الأكثر بُخلًا ...
ذلك أنه لم يمنحنا يومًا رفاهية اختيار
أو تعديل النتائج.

دائمًا كانت بلدتنا كومانور مرتبكةً عقائديًّا، ما إن تطمئن لعبادة ملك، حتى ينتهي ليتسيَّد إلهٌ غيره، وما إن يعتنق أهلهُا دينًا حتى يفاجأون بدينٍ يمحو ما سبقه، ويدَّعي بأنه الأحق والأمثل.

في الواقع بات الكومونايون يتعاملون مع الأطروحات العقائدية والمذهبية المُستنسخة والمُستجدة بلامبالاةٍ شديدةٍ التلقائية، فتحوَّل الأمر من اعتقاد إلى تقبُّل، ومن إيمانٍ إلى رضا يميل إلى خنوعٍ ثم إلى اعتياد.

تعاقب على أرضنا عشرات الآلهة، ومئات الأنظمة الحاكمة، وتعددت اللغات وتباينت الثوابتُ، وبقي دائمًا وأبدًا تفرُّدنا بإرثنا واعتدادنا بأصولنا واختلافنا، وإيماننا بذلك الخيط الغامض الواصل بين تاريخنا وحاضرنا ومستقبلنا، ربما كان للأمر علاقة من قريبٍ أو بعيدٍ باشتغال الكومونايين الأوائل بالسحر.

اعتنق الكثيرون من الكومونايين المسيحية، وتحديدًا المذهب المسيحي اليعقوبي، وهو ما تعارض جملةً وتفصيلًا مع المذهب الخلقدوني للحكام الروم البيزنطيين والذي ينصُّ على اتحاد الطبيعتين الإلهية والبشرية في شخص المسيح.

وبينما عمد الروم إلى التنكيل بكل الطوائف التي اختلفت معهم مذهبيًّا، إلا أن النموذج الكومونـاري كان

عصيًّا على الاستيعاب، فكومانور كانت مُحاطةً بأسوارٍ عالية، وخنادقَ عميقةٍ، ومؤهلةً من قديم العقود لأن تكون مملكةً في ذاتها.

حتى إن أهلها ورغم اعتناق الأكثرية منهم الدين المسيحي وتحديدًا المذهب اليعقوبي، إلا أن الكثيرين منهم لا يزالون يُقدسون الإله الجد الأعظم كومانور ويُبدعون في استحضار جبروته بالسحر والنحت، ويُبجلون وزيره العجوز الساحر، ويتحدثون بفخرٍ وخشوعٍ عن رسول الإله الطائر العالق في السماء إلى حين.

قليلٌ من الكومونايين لا يزالون يعتقدون باليهودية، وآخرون يعبدون آلهةً إغريقية قديمة، وبعضهم يدينون بدينٍ وهمي لا يُوجد إلا في خيالهم، ومع كل هذا وذاك لم ينقطع دابر السحر من السلسال الكومونـاري بعد.

كل هذا جعل من كومانور نموذجًا أكثر تعقيدًا وتشابكًا وتوحدًا في ذات الوقت، فشل الأغراب في فهم واستيعاب الحالة الكومونارية النادرة، ففضلت الأنظمة الحاكمة على اختلاف أصولها ومنبتها وأزمانها تجنب الصدام مع الكومانوريين واعتبارهم دولةً داخل الدولة، فقط يكتفون بقيام أحفاد الرب بإعلان ولائهم اللفظي والظاهري للعرش الحاكم في العاصمة.

اشـتهر قِبـط كومانـور بالتجـارة مـا بـين المـدن المصريـة وبـلاد اليمـن والحجاز،يحتكـرون طريـق التُهامـي المـوازي لسـاحل البحـر الأحمـر، وكان أشـهرهم عـلى الإطـلاق التاجـر "سركيـس"، ذلـك الـذي جمـع ثـرواتٍ لا عـدَّ لهـا ولا آخـر، يُتاجـر في كل شيء وفي كل مـكان، وتزدهـر الأرض أينـما حـلَّ، حتـى أنـه كان صديقًـا لـكل الحُـكام، ورفيقًـا لـكل الوجهـاء، وحامـي كومانـور الأول.

كان جيشًـا في ذاتـه بقـوة المـال وجـبروت الاحتـكار لِجُـلِّ مـا يحتاجـه أصحـاب الحاجـات وأصحـاب السُـلطة.

يقولـون إن سركيـس ورث قـوة السـحر العظمـى مـن سلسـال الكومانـور الإلـه، ويُقـال بأنـه عـثر عـلى كنـزٍ مـن كنـوز العجـوز الوزيـر السـاحر، ويُقـال بأنـه ليـس كومونارِيًّـا مـن الأسـاس وبأنـه ينحـدر مـن سـلالة الحدارِبـة.

قالـوا عنـه الكثـير، وسـمعنا عنـه الكثـير والكثـير، الصغـار قبـل الكبـار يتحدثـون عـن حكمتـه ورجاحـة عقلـه، تلـك التـي اكتسـبها بطبيعـة الحـال مـن التجـارة وكـثرة الترحـال، أضـف إلى ذلـك بـأن الأغنيـاء لهـم مكانـة في قلـوب الجميـع، خاصـة العـوام، فالمـال سـيظل يحتكـر الألبـاب في كل وقـت مـع اختلاف العصـور، حتـى أنـه عندمـا عـاد مـن واحـدةٍ مـن رحلاتـه التجاريـة المعتـادة ليفجـر في وجوهنـا مفاجأتـه العُظمـى،

تعامل معه الكوموناريون باحترام، ولم يفكر أحدهم مع هول ما قال أن يتعرض له بسوء، أو حتى يتلفظ باتهامه بالكذب أو الادعاء، يومها اكتفى الناس بالصمت، والنظر في وجوه بعضهم البعض، ثم الانصراف بعيدًا من دون تعقيب.

سركيس يتحدث إلى الناس عن دينٍ جديدٍ سمع به في ترحاله بين قبائل العرب، وكيف تملَّكه الفضول لمعرفة المزيد عن الأمر، فذهب لملاقاة الرسول المزعوم، وكيف مُنع من إتمام اللقاء، حيث طلب منه قوم الرسول الذين يحاربون رسالته احترام الحصار والمقاطعة التي فرضوها عليه وعلى من اتبعه منذ سنوات.

سركيس يحكي عن لقائه بواحدٍ من أثرى وأكبر تجار قبائل العرب، والذي يُعد في الوقت ذاته واحدًا من أقرب أصدقاء الرسول العربي، ذلك الذي قرأ عليه كلماتٍ من كتاب السماء المقدس، وكيف أن رسولهم سافر إلى بلاد مسقط رأس المسيح وصعد لملاقاة أهل السماء في ليلةٍ واحدةٍ أو بجزءٍ منها، وكيف أن بداية الاتصال بين صاحبه والسماء تجسَّدت في غارٍ يقبع في باطن واحدٍ من جبال العرب.

عكف سركيس أعوامًا في الإشراف على بناء واحدٍ من أكبر صروح كومانور، يتوسط ردهة مدخله الكبير تمثالٌ

يُناطح الجبال طولًا، يحمل على رأسه تاجًا في أوسطه طائرٌ له رأس إنسي وسيم، ومنقوش على جبهة التمثال الأعظم: كلمات "الرسول العربي الطائر".

توجَّه الكبار إلى قصر سركيس طالبين تفسيرًا مقنعًا ومُجديًا لما رأوه وقرأوه بصرحه الجديد.

سركيس يصيح في الناس ببلاغته الساحرة وحنكته المعهودة:

"الرسول الطائر حط على الأرض من جديدٍ، اختار بقعةً بعيدةً للهبوط، ليبدأ رحلته مترجلًا نحو منبته الكوموناري، فيمنحنا مزيدًا من الوقت والحكمة للتهيؤ لاستقباله كما يليق بقدسيته ورسالته، والتطهر مما علق بسرائرنا وضمائرنا من آثام، إنه البعث المُقدس والمنتظر، إنه الخلاص يا قوم".

وهنا صمت الناس ويكأن على رؤوسهم السحر، وما استفاقوا إلا على صياح أحدهم:

"هنيئًا يا أحفاد الرب، كوموناور الإله بعث إليكم برسوله الطائر من جديد، رحمةً وبركةً وإنقاذًا، عادت أمجاد البلاد، الحمد لكوموناور.... الحمد لكومانور .....".

وردَّد الناس فور استعادة وعيهم باللحظة: "الحمد لكومانور العظيم، الشكر للجد الإله".

وهنا وصلت الفُرقة حدًّا لم تصله في بلدتنا منذ بدأ الوعي للتأريخ، انتفض حُماة الصليب منتقدين هُتاف العوام لكومانور بكونه إلهًا من جديدٍ، وتعملقت الفتنة إلى أن وصلت في أحيانٍ إلى حد إراقة الدماء بين الفريقين.

وصلت الأنباء إلى العاصمة، فاحتار الحاكم في مُعالجة الأمر، ليس بالأمر الهيِّن إصدار أمر بتسيير قوات إلى كومانور لتأديب أهلها، فالبلدة قد تتناسى تناحرها وتتحد في لحظةٍ ضد قوات الحُكم، وهنا لن تكون العواقب مأمونةً في ظل اتحاد الكومونارين.

اتخذ الحاكم قرارًا بالقبض سرًّا على سركيس حتى تخمد الفتنة، ويعود الناس إلى صوابهم، ونسيان ماضيهم المسحور.

اختفى سركيس من بين الكومونارين، وانتشرت الأنباء باعتقاله لِكُفرِه وتشكيكه في دين المسيح، وأن مصيره سيئول إلى كل من يُردد أو يتفوه بحديث الزندقة المُحَرم.

وصمت الناس، ربما كان صمت الانتظار، أو صمت اليقين، وفي بعض الأحوال فهو صمت الترقب.

تعدو السنوات، ولم يعد سركيس، ولم تصل أنباء من بلاد العرب عن الرسول الطائر.

إلى أن جاءنا يومٌ ترددت فيه الأخبارُ بأن العرب يسحقون الروم في كل مكان، وأنهم باتوا على مسافة ساعاتٍ من كومانور.

ابتهج الناس، وأعادوا الزينات والأنوار إلى صرح سركيس العظيم، وانتشرت آيات الحمد لكومانور، واصطف الناس على عتبات الأبواب والأسوار في انتظار المُخلص المترجِّل من بلاد العرب بعد عودته من السماء.

دخل العرب بلا أية مقاومة، وانتشرت خيولهم في كل أرجاء كومانور، لم يظهر من بينهم رسول، ولم يلتفتوا أو يُجيبوا الكوموناريين عن أسئلتهم.

توجَّه الوجهاء وكبار كومانور إلى كبير العرب القادم، يقصُّون عليه نبأ سركيس الكومونـاري.

استمع القائد العربي لروايتهم صامتًا، ثم أصدر قراره باستمرار حبس سركيس بتهمة الكفر والادعاء.... إلى الأبد.

تعجب الناس، حتى وجدوا ضالة فكرهم في تفسيرٍ أشاعه أحد أتباع "سركيس" بأن الرسول الطائر غضب من حالنا، ورفض البقاء على الأرض فعرج إلى السماء مؤجلًا الخلاص.

فاعتنق أكثر الكومونايين الدين الجديد قربانًا لرسولهم المُنتظر،..... علَّه يعود.

٤

امْرَأَةٌ أَحْيَاهَا الدَّم

كتاب التاريخ هو الأكثر دموية ...
ذلك أنه احتمل راضيًا كل تلك الأطنان
من السائل الأحمر.

العمدة فهيم أعظم عُمداء كوم النور على مدى تاريخها أو التأريخ لها، تناقلت العائلات حكايته جيلًا من بعد جيلٍ، يمتلك من القوة، والثروة، والسلطة، وداء البُخل ما جعله يمتلك نصف أرض كوم النور، يحتكر العمودية التي جعلها تتوارث كالنظُم الملكية، تربطه برجال القصر الملكي عَلاقات قوية جعلته يحصل على لقب البكوية في سن صغيرة جدًّا، ولم يكن أحدٌ من الكومونارين يجرؤ على جداله أو عصيان أمره، أو حتى المرور من بعيد على مرمى بصر قصره راكبًا على حماره.

لم ير أهل البلد له ولدًا ولا زوجةً، قيل بأنه تزوَّج من مصراوية من أصل تركي وأنجب منها ولدين يعيشان في بلاد الإنجليز يدرسون كالخواجات وبينهم.

تضخمت سلطته وثروته وذاع صيته في كل نواحي بحري، يزرع في أرضه كل شيء، ويتاجر في كل شيء، ويسيطر على كل شيء – دون أن يبرح قصره.

لم يلتفت أحد يومًا إلى كونه مسيحيًّا، ولم يفتقده أحد يومًا في جماعة صلاة الجمعة، لكن الأمر بدأ يُثار على غير العادة عندما تبرَّع بقطعة أرضٍ كبيرةٍ بجوار قصره لضمها لأرض الكنيسة وإعادة بنائها على نفقته الخاصة.

تعجب الناس من كرمه غير المعتاد وتخليه عن بخله، ولأول مرة في كوم النور تنتحر علامات التعجب خارج أُطر الأفواه المرعوبة، قالها الحاج نظير الزيادي "كبير عائلة الزيادية" في وسط الجامع بأعلى صوته:

"ده إحنا عمرنا ما شوفنا العمدة طلَّع سحتوت من جيبه لجامع أو حد غلبان، طول عمره ماسك على ماله ودهبه وأرضه زي ما يكون هيخلد فيها، إيه اللي جد في الدنيا؟".

وأعلن الحاج نظير من فوره تبرعه بقطعة أرض يمتلكها على حدود الجامع الكبير من الناحية القبلية لتوسعة الجامع، لم يتفاعل الناس مع إعلان الشيخ المُسن وانفضوا من حوله بسرعة البرق خوفًا من أن يصل الكلام إلى العمدة فهيم بك فيُفهم أنهم متورطون في الأمر.

ما فعله الرجل كان بمثابة كارثةٍ مجتمعيةٍ في كوم النور لم يستطع أحد التنبؤ في دخائله بعاقبتها.

في اليوم التالي رأى الفلاحون الحاج نظير يمتطي حماره في طريقهِ إلى أرضه مرورًا بقصر العمدة دون أن يترجل احترامًا وإعلانًا للخضوع.

الغفر وحراس القصر بدوا مُبتسمين بغير اكتراثٍ لما فعله الحاج نظير.

لم يعد الرجل المُسن إلى بيته في نهاية اليوم، وجد الناس في اليوم التالي أشلاء من جسده على أطراف ترعة العجايزة، وظهر من بين الناس من يُروج بأن الحاج نظير فقد عقله في أيامه الأخيرة وربما أساء الرجل الحفاظ على روحه، صمت الناس إعلانًا منهم بالموافقة على استنتاج سبب الموت.

أقام العمدة سرادقًا كبيرًا في حوش القصر لأخذ عزاء الحاج نظير حضره كل أهل كوم النور، ولم يجرؤ أحدهم بمجرد الهمس باحتمالية تورط العمدة في مقتل الرجل.

اقتحمت الحاجة سكينة زوجة الحاج نظير سرادق العزاء وصاحت في الناس:

"قوم يا مَره منك له، مفيش عزا"

وواجهت العمدة بجرأة لم يعهدها أو يعتادها الناس، ونظرت في عينيه بتحدٍّ أذهل الكلَّ:

"متشكرين يا عمده، عزاك ميلزمناش، الحاج نظير مماتش".

لا يليق بالعمدة ولا غيره على أية حال الاحتكاك بالنساء أو إظهار الندية في التعامل معهم، التفَّ الغفر حول الحاجة سكينة وحاولوا إبعادها عن عمدتهم، فانتفض الناس من

جلستهم، وأشار البيك لفوره على غفره بالابتعاد عنها ووجَّه حديثه إلى شيخ غفره:

"شوف تمن بيتهم وأرضهم كام، وييجي الصبح عليهم وهما بره كوم النور".

وانصرف العمدة، واختفى الرجال من السرادق، وبدأ شيخ الغفر في تنفيذ أمر البيه، وتعجب الناس لتقبل المرأة القوية الأمر بهذه البساطة، وقبولها ثمن البيت والأرض، بل وخروجها فعليًّا مع بناتها مُهجَّرات من كوم النور خانعةً تمامًا لأمر العمدة.

ككل الأحداث الجِسام في بلدتنا تهدأ تمامًا مع مرور الهمِّ، ويدفنها الناس بلا رحمةٍ في بئر عميقةٍ تستعمر العقول والقلوب، وهذا تمامًا ما كانت تنتظره الحاجة سكينة.

استخدمت المال في مكانه الصحيح، لجأت ببناتها إلى كوم الطبالي تلك التي يقطع الحمار المسافة بينها وبين كوم النور في نهارين وليلة، تحالفت بكل ما تملك وما حصلت عليه من العمدة مع فتوة وكبير كوم الطبالي.

الريس زُغلة لم يستطع رد سيدة تلجأ إليه وبرفقتها حفنة من البنات.

وبدأ الترتيب لخطة الحاجة سكينة.

كان طلبها الأول والأهم ألا يقتل سواها العمدة فهيم، وأن يقتصر دور الريس زُغلة ورجاله على الحماية واصطياد العمدة، والتواصل مع ما تبقى من أهلها وأهل الحاج نظير في كوم النور، وكذا تهيئة المتعاطفين معهم للتدخل وقتما تقتضي الحاجة.

اختارت الحاجة سكينة يوم السوق حيث اعتاد فهيم بك التجول على ظهر حصانه ليتابع الأحوال ويُحدد الأسعار وربما يختار من كانت بلا أهل لتقاسمه ليلته على سريره.

انتشر رجال الريس زُغلة بين الناس في السوق، وبدا عدد النساء الغريبات عن كوم النور أكثر بكثيرٍ عن المعتاد، وظهر العمدة من بعيدٍ ممتطيًا جواده، فبدأت التحركات.

عشرات الملثمات من نساء كوم الطبالي يلتففن حول العمدة وحصانه، يجذبنه من فوق عرشه، الرجال يُخرجون أسلحتهم وعصيهم من تحت الجلابيب، يصنعون سياجًا حول المشهد مانعين تدخل من يفكر في الاقتراب.

وتولت النسوة تنفيذ البند التالي من الخطة، جرَّدن العمدة من كامل ملابسه الفوقية والتحتية، كبَّلن حركة يديه وقدميه بالحبال، وهنا ظهرت الحاجة سكينة كملكة

تنـزل عـلى رعيتهـا بكامـل الثقـة والشـموخ، تتبعهـا بناتهـا كالوصيفـات الفاتنـات.

ومـن الجانـب المقابـل ظهـر شـيخ الغفـر ورجالـه يهرولـون لنجـدة سـيدهم، وهنـا تـولى كل مـن في السـوق مـن أهـل كـوم النـور - وأغلبهـم ممـن تـم التنسـيق معهـم مُسـبقًا للتهيـؤ حـين الحاجـة – السـيطرة عـلى الغفـر وتكبيلهـم.

لم تنـس كـوم النـور لعقـودٍ كثيرةٍ وحتـى الآن مشـهد الحاجة سـكينة وهـي تُجـري أعقـد وأبشـع عمليـة ثأريـة سـمعوا بهـا في تاريخهم:"إخصـاء العمـدة، تشريـح جسـده حيًّـا، فصـل الـرأس عـن الجسـد، وفي النهايـة إحـراق كل شيء".

انتهـى العمـدة فهيـم، ولم يظهـر لـه أبنـاء ولا زوجـة ولا ورثـة، وآلـت كل أملاكـه لبـلاط القـصر الملـكي، وحينـما جـاءت الحكومـة لتحقـق في الأمـر، أخبرهـم شـيخ الغفـر- الـذي عُـين عمـدة إلى حـين- بـأن أغرابًـا لا يعرفهـم قامـوا باغتيـال فهيـم بـك وحـرق جثتـه عـلى أطـراف كـوم النـور، وأيـده كل الغفـر والأهـالي.

عـادت الحاجـة سـكينة ببناتهـا إلى الـدار والأرض، واكتفـى الريـس زُغلـة بالمـال ودعـوات الولايـا، واتخـذ الضعفـاء مـن سـكينة عمـدة مـن دون تعيـين أو تكليـف مـن الحكومـة.

٥

العَتَبَات

كتاب التاريخ هو الأكثر عبثًا ...
ذلك أنه لم يستطع يومًا الفصل الكامل
ما بين الحقيقة والخيال والعبث.

يقـول الشـيخ أمـان، حـارس عتبـة الجامـع الكبـير في قريتنـا كـوم النـور إن الكنـز الـذي تركـه لنـا جدنـا الأكـبر كومانـور قابع تحـت العتبـة السـحرية للجامـع، ويقـول كذلـك بـأن الجامـع تـم بنـاؤه في نفـس مـكان معبـد الـرب كومانـور السـاحر، وأن العتبـة المنقـوش عـلى سـطحها تعويـذة سـحرية بلغـةٍ لا يفقههـا العـوام هـي ذات العتبـة لمعبـده القديـم، لم يسـتطعْ أحـدٌ اقتلاعهـا أو هدمهـا أو ردمهـا أو حتـى البنـاء عليهـا عـبر مئـات السـنين.

الشـيخ قـال مـن بـين مـا قـال بـأن مقـبرة الإلـه كومانـور موجـودةٌ أسـفل تعويـذة العتبـات.

حـاول النـاس كثـيرًا فـك طلاسـم التعويـذه لتنفتـح عـلى بـئرٍ عميقـةٍ مـن ذهـب اختزنـه جدنـا الأكـبر.

صغـيرًا كنـتُ دائـم الصـلاة في المسـجد، ودائمًـا أتعمـد أداءهـا بجـوار العتبـة، موقـن بـأن اللـه اختـارني لفـك التعويـذة والحصـول عـلى الكنـز، ربمـا كان للأمـر علاقـة بمـا تناقلـه النـاس عـبر الأجيـال عـن الحـاج طنـاني كبـير عائلـة الطنانيـة والـذي خـرج يومًـا متكئًـا عـلى عصـاه العجـوز مـن بـاب المسـجد الخلفـي بعـد أدائـه صـلاة الفجـر وانتظـاره كعادتـه كل ليلـة بعـد انـصراف النـاس ليغلـق الأبـواب ويطفـئ القناديـل.

يقول الناس بأن عصاه وطئت نقشًا من نقوش التعويذة التي تزين العتبات، فانفتحت العتبة لدقائق ليظهر من تحتها نهرٌ متدفقٌ من سبائك الذهب، فاتخذ الحاج طناني من أطراف جلبابه وعاءً ليغترف من كنز قريتنا قدر ما استطاع، وقدر ما سمحتْ به البئر قبل أن تنغلق ثانية وتبتلع عصاه.

الكل يُبجل عائلة الطنانية، والكل يعمل لأبنائها ألف حساب، هم أغنى أغنياء القرية، وكذلك يعتقد الناس بأنهم سلسالٌ مباركٌ وإلا لما اختارتْ البئر الذهبية كبيرهم لتكشف له عن ملامحها.

امتلأتُ صغيرًا بعشق العتبات، وتلبستُ بداء البحث عن وسيلةٍ لفك التعويذة، تركت نفسي رهينةً لأحلامي، تلك التي تعهدَت الست صالحة خادمة منزلنا بتأويلها بما يخدم هوسي بالكنز الملتحف بالعتبات.

تعمدتُ الحفاظ على صلاة الفجر في الجامع، وتعمَّدت إبقائي لأكون مُغادِرَه الأخير كل ليلة، واتخذت من أعواد الحطب المُكدسة على سطح بيتنا بالتتابع عكازًا صبيانيًّا أتظاهر بالاتكاء عليه حتى يُلامِس العتبات، ربما تنفتح لأيِّها.

استغرق الأمرُ مني شهورًا لنقل النقوش المحفورة على العتبات رسمًا على كراستي، رغبةً مني في تأملها طول الوقت، ومحاولة مصادقتها طول الوقت، واستغرق الأمرُ مني سنواتٍ لأتيقن من فشلي في أن أسترضي حُراس العتبات، أو أن تفلح وساطتي لإتمام الصداقة بين أحد الأعواد وتجاويف التعويذة المنقوشة.

حتى جاءنا يومٌ يختلف عن سابقيه، يقرر فيه الحاج نزيه الطناني عين أعيان كوم النور وكبير الطنانية، وحفيد الحاج الطناني الكبير، ومعه كل أعيان القرية استقدام مجموعةٍ من أمهر السحرة المغاربة ليفكوا طلاسم النقوش المسحورة على سطح العتبات.

أرسل السحرة مع المرسال شروطهم، أولها إخلاء الجامع ثلاثين يومًا دون أن يدخل عليهم إنسيٌّ، ثانيها أن يكون لهم ربع ما سيخرج من تحت العتبات، ثالث الشروط وآخرها ألا يسألهم أحدٌ عن شيء مهما كان ومهما حدث.

مجلس الأعيان يقرر قبول الشروط والبدء في إجراءات استقدام السحرة الأربعة.

يتناثر الخبر في كل مكان، تعم الفرحة أرجاء البيوت والغيطان، ويتفرغ الناس لجلسات المصاطب، يتخيلون

أكـوام الذهـب التـي سـيُنقب عنهـا السـحرة، وكيـف سـيقرر مجلـس الأعيـان توزيعهـا عـلى أهـل كـوم النـور.

مجلـس الأعيـان يُكلـف حسـني أفنـدي الباشـكاتب بحـصر كل الأُسر في القريـة حـصرًا دقيقًـا، وتحديـد العائـلات ذات الأصـول الكومونارية الصافيـة، تلـك التـي سـيكون مـن حقهـا أن تـرث جدهـا الأكـبر كومانـور.

السـحرة يصلـون، ينزلـون ضيوفًـا عـلى الشـيخ نزيـه، يتجمَّـع أهـل القريـة عـن بَكـرة أبيهـم لأداء صـلاة الجمعـة الأخـيرة في الجامـع قبـل إغلاقـه شـهرًا كامـلًا.

شـيخ الجامـع يصعـد عـلى عتبـات المنـبر دامـع العينـين، يخطـب في النـاس زاعقًـا:

"إغـلاق الجامـع حـرام، دخـول السـحرة بيـت اللـه حـرام واسـتخدام السـحر عـلى إطلاقـه حـرام حـرام".

تلفـت النـاس لبعضهـم ثـم إلى العتبـات، وانسـحبوا مـن المشـهد، خرجـوا مـن الجامـع دون صـلاة.

الحـاج نزيـه يبعـث مرسـاله لشـيخ الجامـع طالبًـا منـه مغـادرة كـوم النـور حتـى إشـعار آخـر.

السـحرة يعتكفـون، لا يعلـم إلا اللـه مـاذا يحـدث بداخـل المسـجد.

لم يجرؤ أحد على الاقتراب من المسجد، جلسات المصاطب بعد الغروب أصَّلت لأسطورةٍ جديدةٍ دخلت في قاموس كتاب الأساطير المُختزن في أوهامنا.

"تقول الأسطورة المُبتكرة بأن من يقترب من الجامع ليلًا سوف ينشله السحرة قربانًا لحراس العتبات".

واقتربْتُ... عمدًا.

قررتُ دخول الجامع من النافذة المفتوحة في دورات المياه، والتلصص على أعمال المغاربة، لا أخفيكم سرًّا، تملَّكني شعورٌ بأنهم يُنقبون عن حُلمي، ينهشون إرثي الذي أنتظره كل ليلة.

"كيف أسمح لهم أن ينفردوا بمقبرة الجد ويغترفوا دون وجه حق من كنزه المغشي عليه؟".

سوف أقف حائلًا أمام أطماعهم السوداء.

***

مرت ثلاثون ليلة بالتمام، يتجمع الناس وعلى رأسهم أعيان بلدتنا أمام باب الجامع في انتظار الخروج الكبير، مُحملين برائحة أنهار الذهب المُصفَّى.

لم أكن من بينهم.

الشـيخ نزيـه يطـرق بـاب الجامـع الأمامـي اسـتئذانًا في دخولـه والأعيـان..... لم يُجبـه أحـدٌ.

دخل الأعيان، والناس تترقب النتائج..... لم يخرج الأعيان.

اقتحـم النـاس الجامـع أفواجًـا لاسـتبيان مـا يحـدث ومـا حـدث، أو ربمـا خوفًـا مـن أن ينفـرد الأعيـان بالـثروة.

لم يجـد أحـدٌ أثـرًا للسـحرة، ولم يجـد أحـدٌ أثـرًا للنقـوش عـلى العتبـات.

الصدمـة لجمـت أفـواه وعقـول النـاس، والتـف الجميـع حـول الحـاج نزيـه المسـئول الأول عـن اسـتقدام السـحرة يسـألون عـن شرحٍ أو تفسـير.

بـدا جليًّـا أن الأعيـان وفي مقدمتهـم الحـاج نزيـه في مـأزقٍ شـديد الخطـورة.

حسـني أفنـدي الباشـكاتب يدخـل الجامـع قادمًـا مـن بـلاد البنـدر يصيـح حامـلًا البـشرى للنـاس:

"الظبـاط في الجيـش عملـوا هوجـه وعزلـوا الملـك وطـردوه بـره مـصر، وبيقولـوا إنهـم هياخـدوا فلـوس الأغنيـا يدوهـا للفقـرا".

سـاد الصمـت بـين النـاس، وهتـف الحـاج نزيـه فيهـم: "الظبـاط بعتـوا السـحره ياخـدوا ورثكـم يـدوه للفقـرا".

هتف الناس ضد الثورة.

ما زال الناس في كوم النور حتى الآن يكرهون عبد الناصر زعيم ظباط الهوجة.

***

ما زلت أحتفظ بقطعة الذهب التي قذفها السحرة في وجهي عندما دخلت عليهم الجامع بينما كانوا يهبطون سلالم البئر بعد أن انفتحت لهم العتبات قبل أن تنغلق ثانية للأبد.

***

ما زلتُ أحتفظ بنقوش العتبات المختفية في كراستي، وما زلتُ دائم الصلاة في المسجد متعمدًا أداءها بجوار العتبات، موقن بأن الله اختارني لفك التعويذة والحصول على الكنز.

لم أكره عبد الناصر كالآخرين.

٦

اللَّعْنَة

كتاب التاريخ هو الأكثر ضعفًا ...
ذلك أنه لم يستطع يومًا أن يحنو على مقهور
أو أن ينصف مظلوم.

كـوم النـور تسـبح عـلى كنـزٍ كبـيرٍ مـن آثـار أجدادهـا، المشـكلة تكمـن في أن الأبنـاء لم يتوارثـوا حرفـة السـحر مـن أسـلافهم، فلـم يسـتطعْ أحـدٌ مـن أهلهـا العثـور عـلى كثـيرٍ مـما تركـوه لنـا.

جاءنـا أنـاسٌ يرتـدون زي الأثريـاء يمتطـون عربـاتٍ فارهـةً يسـير وراءهـم آخـرون يحملـون أسـلحةً لم نعهدهـا لحمايتهـم.

نزلـوا أول مـا نزلـوا عـلى دوار العمـدة، ورغـم عِلـم الجميـع بـأن العموديـة لم تعـد بكامـل هيئتهـا أو هيبتهـا التـي كانـت عليهـا منـذ عـشرات السـنين، إلا أنـه وعـلى كل حـالٍ يبقـى العمـدة واجهـةً ولـو رمزيـةً لأهـل البلـد.

العـرضُ الـذي تقـدَّم بـه الكبـار مجهولـو المصـدر والهويـة يتلخـص في اسـتعدادهم التنقيـب عـن آثـار كـوم النـور مـن تحـت منـازل أهلهـا مقابـل ثلـث مـا يتـم اسـتخراجه لصالـح أهـل الـدار القائمـة فـوق أرض الكنـز، عـلى أن يتحمـل الغربـاء كافـة تكاليـف التنقيـب ونفقاتـه التقنيـة.

بطبيعـة الحـال فـإن العمـدة لم يكـن يملـك أن يُعطـي الغربـاء كلمـةً أو قـرارًا في حينـه، طلـب منهـم أن يُمهلـوه أسـبوعًا لحـين التشـاور مـع الأعيـان.

اجتـماع مجلـس الأعيـان العـرفي -والـذي يضـم وجهـاء وكبار ومتعلمـي كـوم النـور- اسـتمر لأكـثر مـن خمـس سـاعات مـن

التشاور والبحث، قرروا فيها الموافقة على عرض الغرباء على أن يرتفع نصيب كوم النور إلى الثلثين من إجمالي ما يتم استخراجه من كل أرض البلد بصرف النظر عن البيوت التي تم الاستخراج من أسفلها، على أن يتم توزيع النسبة على كل أهل القرية في صورة مبالغ مالية أو مشاريع عامة أو خدمات تعليمية أو صحية أو بنية تحتية.

وقبل كل ذلك فإن المجلس يُفوض العمدة لتبليغ الغرباء بقرارهم والتفاوض معهم بشأنه.

قَبِل الغرباء بشروط المجلس على أن يتم محاسبة مجلس الأعيان بشكل نصف سنوي، وبدأ العمل في التنقيب تحت حراساتٍ أمنيةٍ شديدة الصرامة والسرية، حتى أن الغرباء يطلبون في أغلب الأحيان إجلاء سكان حارة بأكملها بعد توفير أماكن مناسبة أكثر رفاهية من بيوتهم الأصلية لإيوائهم.

شهورٌ من العمل المتواصل، والحلم يتكاثر في خيالات العقول الظمآنة، عربات تدخل وأخرى تخرج، سحرة من جنسيات مختلفةٍ يعملون على فك تعاويذ المقابر والكنوز، والمجلس ينتظر مرور الستة شهور الأولى لبدء الحساب مع الغرباء وبدء فيضان المال والذهب.

وكعادتي لا أهدأ ولا أكف عن التفكير والتنقيب، مقتنعًا تمامًا بأن لي حق الميراث في كنوز أجدادي التي بدأ التنقيب عنها، بعثتُ للمجلس برسالة من دون توقيع أتساءل فيها عن كيفية معرفة أو تحديد الكم الحقيقي للكنوز التي يستخرجها الغرباء والتي على أساسها ستتم القِسمة، وطالبت بوجود مندوب من الكومونارين يلاصق الغرباء لحصر الكنوز المستخرجة، وربما يتعلم كيف يقومون بالتنقيب لينقل لنا الخبرة فنستغني عن الغرباء ويؤول الإرث بأكمله لمستحقيه.

وافق المجلس، وتم الاجتماع بالغرباء وتبليغهم شروط المجلس الجديدة، ابتسم "البهوات" ولم يعترضوا.

في اليوم التالي انقطع الغرباء، أيام مرَّت وشهور انقضت، ولم يعد أحدهم، والعمدة ليس له حيلة في الأمر، سأله الأعيان عن عنوانهم، أو ضمانات عليهم أو حتى صور لهوياتهم.

لم يكن العمدة يمتلك إجابة ولا معرفة عن أي شيء.

الصدمة والإحباط والفشل والشعور بالعار سكنت كل بيت في كوم النور.

مجلس الأعيان يقرر الاعتماد على أهل البلد ومحاولة التنقيب بأنفسهم عن كنوز الأجداد.

اشـترك الجميـع في الحفـر والبحـث وجمـع الكتـب التـي تتحـدث عـن التعاويـذ السـحرية.

العمدة استقدم بعض العرافين من بلاد الصعيد.

أيام قليلة، وحضرت الحكومة.

انتـشرت القـوات السـوداء في كل الحـارات وأمـام كل البيـوت، وتـم القبـض عـلى مجلـس الأعيـان والعرافـين، وتـم القبـض عـلى العمـدة وعزلـه مـن منصبـه.

وعندمـا تجمَّـع كل أهـل كـوم النـور أمـام نقطـة الشرطـة للمطالبـة بإخـلاء سـبيل الكبـار، همـس ضابـط النقطـة حديـث التخـرج في آذان النـاس:

"روحـوا يـا إخوانـا، دي أوامـر الكبـار أوي الـلي أكـبر بكتـير مـن الكبـار بتوعكـوا"

وعندمـا سـأله النـاس عـن سـبب اعـتراض الحكومـة عـلى التنقيـب الآن، وعـدم اعتراضهـا عـلى تنقيـب الغربـاء، أجـاب همسًـا:

"مـا هـو الغُـرب دول رجالـة الكبـار، وهـم اسـتكفوا عـلى كـده، ورافضـين حـد يكمـل غـير لمـا يرجعـوا بعـد مـا يصرَّفـوا الـلي جمعـوه ".

تـم الإفـراج بعـد أيـام عـن العمـدة والأعيـان لتخفيـف الغضـب ومنـع الاحتقـان، وعندمـا التـف النـاس حـول كبارهـم الذيـن بـدت الإهانـة عـلى عمائهـم، لم يجـدوا سـوى طلـب الأعيـان منهـم والـذي يرقـى لأن يكـون أمـرًا بالعـودة إلى بيوتهـم ونسـيان كل شيء.

صـوتُ الأسـتاذ أحمـد المحامـي "ابـن عـم حسـني أفنـدي الباشـكاتب" يصيـح مـن وراء الجمـوع بالخـبر الجديـد:

"قتلوا السادات عالمنصه".... " الريس اتقتل يا بلد".

لم يتعاطـف أحـدٌ، لم يحـزن أحـدٌ، لمحـت بعـض الابتسـامات المكبوتـة تختبـئ وراء انـصراف النـاس ضاربـين أكفهـم عـلى أكفهـم شـاخصةً أبصارُهـم صـوب السـماء.

كل الكومونارييـن ينتظـرون اليـوم الـذي يثـأرون فيـه لإرثهم المسـلوب مـن الكبـار الأكـبر مـن كبارهم.

٧

أَوْلِيَاءُ كَاذِبُون

كتاب التاريخ هو الأكثر تديناً ...
ذلك أنه يعتنق كل الأديان.

عرفناه خادمًا للجامع الأكبر في بلدتنا، يرتدي دائمًا نفس الجلباب القديم المُرقع، يرفع الأذان، ويجمع التبرعات في الصندوق، يزرع بذور القرآن في عقول أولاد الناس الغلابة، وأحيانًا يؤم الناس في صلاتهم حال تغيب شيخ الجامع أو تأخره.

كان عذب الصوت، محبوبًا من الجميع، كان كذلك بلا عائلةٍ ولا بيتٍ ولا ولد.

يحترمه الناس ويسخرون منه في آنٍ واحدٍ، في حضرته تتجسد في عيونهم خلطة غريبة تمزج ما بين الرهبة واللامبالاة، ينادونه بالشيخ مِحرز، الأطفال يسخرون منه ومن ملابسه القديمة البالية، والكبار يُرددون شائعات يطلقها البعض بين الحين والحين عن الشيخ الخادم.

يقولون إن الشيخ مِحرز من الأولياء، يخدم بيت الله، يزهد في كل ملذات الدنيا، يتحدث إلى الأموات ويبعثون له بالرسائل.

يقولون بأن الكبار والأعيان يذهبون إلى كوخه سرًّا في جنح الليل يطلبون وساطته عند الوليِّ المتوفى ذائع الصيت سيدنا أبو المعاطي.

لكن لا يزال السواد الأعظم من العوام يُكذبون ويسخرون من كل ما يُشاع.

سيد فتلة كان واحدًا من أسوأ الحلاقين في البلد، دكانه قابع في مواجهة باب الجامع الكبير، يجلس دائمًا على باب الدكان دون زبائن ولا عمل، ينظر للمارة، ويثرثر في سيرة فلان وسيرة فلانة.

الطريف أن الزبائن كانت تأتيه من حيث لا يدري ولا يدري أحد، فقط، أثناء خطبة الجمعة، قيل بأنهم من دأبوا على الهروب من الخطبة ودخول الجامع فقط عند إقامة الصلاة.

الشيخ مِحرز يجلس دائمًا على مصطبة دكانة سيد فتلة، يتمتم بكلمات غير مفهومة ويذكر الله طول الوقت، ويتلقى تبرعات النساء الراغبات في الوصال مع سيدنا أبو المعاطي.

حتى أتاه يومه الفارق، فكرة شيطانية راودته منذ زمن، لم يكن يستطيع قبلًا مجرد التفكير فيها، نادى سيد فتلة وطلب إليه أن يغلق باب الدكانة عليهم لمناقشة أمرٍ جلل.

واتفق مِحرز مع فتلة على كل شيء، وتعاهدا على حفظ السر وتنفيذ العهد.

وسافر فتلة إلى بلاد البندر ليشد الرحال إلى طنطا في اليوم التالي، وعاد إلى دكانه بعد يومين وكأن شيئًا لم يكن.

***

اعتـاد الأعيـان وطالبـو القُـرب والوصـال عـلى السـفر إلى طنطا كل عـام لحضـور مولـد السـيد البـدوي، هـذه المـرة طلب سـيد فتلـة أن يكـون معهـم لخدمتهـم، وحراسـة متاعهـم.

لم يكـن في كـوم النـور عربـات تسـتطيع السـفر عـبر حـدود البنـادر، فاعتـاد الأعيـان تأجـير أتوبيـس كبـير بسـائقه مـن البنـدر يرافقهـم برحلتهـم حتـى العـودة.

وكان لركـوب الأتوبيـس بروتوكـولٌ متعـارفٌ عليـه لا يجـرؤ أحدهـم عـلى الحيـاد عنـه، فالأعيـان وذووهـم ومتاعهـم وأحبابهـم وأصدقاؤهـم في مقدمـة الراكبـين، يعقبهـم الأتبـاع والخـدم، ثـم يُفتـح البـاب للمحظوظـين مـن العـوام والفلاحـين بأسـبقية الوصـول لبـاب الحافلـة.

اكتملـت الحافلـة عـن آخرهـا، وبينـما يبـدأ السـائق في التحـرك، يظهـر أمامـه وأمـام الحافلـة شـيخ تعـدى السـتين، يرتـدي جلبابًـا شـديد البيـاض ويضـع فـوق رأسـه عمامـةً خـضراء، ويشـيح بعـكاز أنيـق في وجـه الركـب ليصطحبـوه ويرافقهـم.

تعجَّـب الجميـع مـن مظهـر الشـيخ مِحـرز الـذي لم يعتـده أحـد بتلـك الأناقـة، ولم يُـر يومًـا قريبًـا مـن طريـق البلـدة الزراعـي، خـرج كبيرهـم مـن الحافلـة معتـذرًا للشـيخ حيـث

لم يعد في الأتوبيس مكان ولو لِقطة، ويعده بأن يكون أول المسافرين معهم في السنة القادمة.

لم يُجبه مِحرز، تحرَّك مبتعدًا عن الحافلة وهو يُردد دون انقطاع:

"ده ناداني يا عالم يا جهلة، جايلك يا حبيبي، جايلك يا حبيب الحبيب، .....".

ضحك الناس والأعيان، تحرَّك الأتوبيس، سيد فتلة يُطل على الشيخ من النافذة بابتسامةٍ واثقةٍ، و..... خبيثة.

***

من قواعد هذا النوع من الرحلات، التحرك جماعةً ولا يُسمح بالتحركات الفردية حتى لا يتوه أو يُفقد أحدهم.

ليلة المولد الكبيرة تتسع للآلاف المؤلفة من كل حدب وصوب، كلٌّ في حالة سُكر يتجرع كأسه ما بين حلقات الذكر ونفحات الطيبين وحضرة سيدنا صاحب المقام والنور، ومبتغى طالبي القرب والبركة.

رائحة الخير والنفحات تفوح في سماء الوافدين ويكأنها تتنزل عليهم من السماء رحمةً وشفاعةً، هكذا كانوا يظنون ويُرددون.

وفودُ القرى والنجوع والمدن وبلاد أخرى غير بلادنا تتحدث لهجاتٍ غير ما اعتدناه، تسير جماعاتٍ منسقةً..

تبحث عن البركة وحضرات الذكر والأولياء المتخفين، وأغلبهم يعتقدهم الناس مجاذيب.

سيد فتلة يستوقف وفد بلدتنا مذعورًا:

"الشيخ مِحرز موجود هناك أهو يا إخوانا، سيدي مِحرز لبى الندا من غير أتوبيس، الناس حواليه هناك أمم، ....."

وذُهل الجميع، سيد لم يكن يهذي أو يتخيل، الشيخ مِحرز يرتدي جلبابه الأبيض الجديد، وعمامته الخضراء ويطوح رأسه في الهواء يمينًا ويسارًا، والناس من حوله بالمئات يحذون حذوه ويتبركون بالوصول للدائرة الأولى من حوله.

حاول وفدُ بلدتنا الوصول إلى الشيخ مِحراز وسط الزحام وتدافُع المريدين، لكن دون جدوى.

سأل كبيرهم الناس عن الشيخ المبروك الذي يلتفون حوله فكان الجواب أكثر غرابةً من رؤية مِحرز نفسه:

"الشيخ محراز موجود هنا من ٣٠ سنة مسابناش ولا يوم".

وبين سؤال وجواب، وبين دهشة وضحاها، وبين عجز العقول عن التفسير أو التبرير، اختفى من المشهد الشيخ

محـراز، وظهـر مـن مريديـه مـن يُكـرر عـلى مسـامع الجمـوع: "شـيخنا راح عنـد سـيدنا".

سـيد فتلـة يقـترح عـلى كبـير الأعيـان مهاتفـة العمـدة عـلى تليفـون الـدوار والسـؤال عـن الشـيخ مِحـرز.

وجـاء الجـواب المتوقـع الصـادم: "الشـيخ محـرز نايـم في الجامـع مبيخرجـش مـن يـوم مـا سـابوه عالطريـق".

***

عاد الوفد يحكي ويتحاكى أمام الجميع.

تـبرع أحـد الأعيـان ببيـتٍ كبـيرٍ وقطعـة أرض مـن حولهـا للـوليِّ الجديـد ليسـتقبل فيهـا مُريديـه.

ذاع صيـت الشـيخ مِحـرز في بلدتنـا وبـلاد الدنيـا مـن حولنـا، وانهمـر سـيل المـال والقرابـين عـلى العتبات.

سيد فتلة أصبح خادم سيدنا مِحرز.

وكانت قسمة الإيراد الشهري بالعدل كالآتي:

-النصف بالتمام لسيدنا مِحرز.

-الربع لسيد فتلة.

-الربـع الأخـير يتـم إرسـاله مـع مخصـوص شـهريًا للشـيخ مِحـراز خـادم الطريقـة المحموديـة وشـقيق الشـيخ مِحرز التوءم الساكن في ضواحي طنطا.

٨

صَيَّادُ الطَّائِرَات

كتاب التاريخ هو الأكثر جهلًا ...
ذلك أنه لم يستطع يومًا
أن يقرأ ما يحمله للناس.

"طيارة، طيارة جت"...

"طيارة، طيارة فووووق".

هكـذا كنـا نصيـح بـكل مـا أوتينـا مـن صـوتٍ اسـتقبالًا للطائـرات التـي يُهديهـا لنـا اللـه لتمـر فـوق بلدتنـا، بعـض الكبـار يؤكـدون بـأن الطائـرات التـي نراهـا بعيـدةً صغـيرةً هـي في الواقـع كبـيرة الحجـم وربمـا أكـبر مـن دوار العمـدة ذاتـه.

كنـا نـرى الطائـرات بآذاننـا قبـل عيوننـا، وبمجـرد سـماع الصـوت المقـدس الصاخـب نهـرول في كل اتجـاه، نجلـب نبالنـا، تلـك التـي نصنعهـا مـن قطعـةٍ حديديـةٍ عـلى شـكل علامـة النـصر مربوطـة مـن طرفيهـا بطـرفيْ قطعـة مـن المطـاط.

نتبـارى بمجـرد رؤيتنـا للطائـرة في تعمـير مدافعنـا البدائيـة الصغـيرة بقطعـةٍ مـن طـوب أو زلـط، نوجههـا ناحيـة السـماء لنُسـقط الطائـرة، لم يكـن مـن بيننـا يومًـا فائـزٌ أو صيـادٌ حقيقي للطائـرات.

حسـني أفنـدي الباشـكاتب يؤكـد مـا بـين كل طائـرة وضحاهـا بـأن لـه قريبًـا مـن أبنـاء عمومتـه في بـلاد البنـدر القبليـة ركـب الطائـرة مـن قبـل، وقريبـه أكـد لـه بأنـه رأى بلدتنـا كـوم النـور مـن فـوق السـحاب.

حتـى جاءنـا يـوم نسـتيقظ فيـه عـلى صـوت ارتطـام لم نألفه مـن قبـل، يليـه صـوتُ مـؤذن الجامـع يـؤذن بعبـاراتٍ أخـرى

غير التي اعتدناها، إنه نداء النفير الأعظم، طائرةٌ سقطت على أطراف كوم النور الشرقية، تحديدًا في الجرن الفاصل بين مقام سيدي أبو المعاطي والساقية المسحورة المتصدرة لأرض الطنانية.

الكل يأتي مهرولًا من كل صوب، الكل يصيحُ بكلماتٍ غير مفهومةٍ، منذ أن سمعنا صوت الارتطام الأكبر في حياتنا واهتزت مع الصوت بنايات الطوب الأسود على أرض بلدتنا والجميع يجري في اتجاه الانفجار.

كالعادةٍ تناثرت الشائعات على ألسنة النساء والصبية، لكن أهم التأويلات رواجًا، والذي تناوله الكثيرون كان مفاده أن الإنجليز عادوا ثانيةً إلى مصر لينتقموا من عبد الناصر.

حسني أفندي الباشكاتب يتحدث، وكالعادة يلتف حوله الكثيرون المعتادون على الانبهار بعلمه وثقافته ورحلاته إلى البندر واطلاعه على صُحفها.

"يا إخوانا دي هتلاقيها طيارة من طيارات بريطانيا العظمى وفرنسا وإسرائيل، اللي جايين يعملوا عدوان ثلاثي على المحروسة، الحرب دايرة ياخوانا وإحنا مش داريانين".

عم الحاج صلاح شيخ البلد ينهر الناس بصوته الأجش:

" بس يا مركوب منك ليها، هوه يعني باراطانيا العظمى سابت كل الدنيا وفاكرانا؟".

التف كل الكومونارين في دائرة كبيرة حول الطائرة المنكوبة، تلك التي بدت أكبر كثيرًا من كل ما طمحنا أو شططنا به من خيال.

العمدة يأمر الغفر بعمل كردون بشري حول الحطام ومنع الناس من الاقتراب حتى تأتي الحكومة وترى ما يتوجب عليها إقراره وما يتوجب علينا تنفيذه.

لم أكن وسط الجمع المُلتف حول الحديد الطائر "سابقًا"، قررت أن أسبق الجميع بالوصول إلى موقع الحطام عبر طريقٍ مختصرٍ من داخل جنايين الجوافة المملوكة لعائلة العجايزة أحفاد الحكيم العجوز.

رغم خطورة الطريق ليلًا، وندرة وطئهِ بالأقدام، لكني قررت كعادتي أن أتودد للحلم علَّه ينتخبني.

رأيتُ شبحًا يأتي من بعيد، يجرّث بكلتا يديْه أجولةً ثقيلةً، ويحاول قدر ما يستطيع أن يُسرع خطاه.

اختبأت وراء شجرة جوافة وارفة الثمار، اقترب الشبح أكثر، وتعرفته.

كان عم بُعلص النجار الذي يجوب حارات بلدتنا والبلاد المجاورة لإصلاح باب أو شباك أو صناعة طبلية أو كرسي.

تتبعت النجار حتى بيته، تلصصت النظر من وراء نافذةٍ متقادمةٍ تكشف أكثر مما تستر، ورأيت ما لم أستطع نسيانه حتى الآن.

رأيته ينادي زوجته لتساعده في فض ما حوت الأجولة، ورأيتهم يُخرجون منها أصابع بشر تتزين بخواتم ملونة بكل الألوان، تصرخ الزوجة من المفاجأة والرعب، يُسكتها عم بُعلص وتعتاد الأمر وتبدأ مع زوجها جمع المجوهرات في جانب والأيادي والمعاصم في جانب آخر، ثم رأيت المفاجأة الأكبر، حقيبة تشبه حقيبة سيد فتلة الحلاق لكنها أكبر وأنظف، مملوءة بأوراقٍ نقديةٍ مختلفةٍ، منها ما رأيته قبلًا ومنها ما لم أعرف حينها توصيفه.

تحركت قدماي عندما اقترب فأر عابثًا بين أصابعي، فانتبه عم بُعلص لوجودي، خرج لتوه يجذبني إلى الداخل، قال الكثير، هدَّد بالكثير، أعطاني غير قليلٍ من المعادن المُلونة فوعدته بالكتمان.

عُدت إلى البيت، أخرجت الصندوق الذي أخفيتُ بداخله منذ سنواتٍ سبيكة الذهب التي قذفها السحرة المغاربة في

وجهي حين اقتحمت عليهم خلوتهم بينما انفتحت لهم عتبات الكنز المسحور.

تخليت عن فضولي برؤية حطام الطائرة، وخرجت مع الشمس مبررًا عدم حضوري تأبين الحطام مع الجميع بأني اصطدت الطائرة ليلًا بمدفعي المطاطي الصغير.

وعندما ضحك أهل كوم النور مُستخفين بهزلي الطفولي، صحتُ فيهم مغتاظًا :

" اللي مش مصدقني يسأل عم بُعلص..... ومراته".

***

وعندما سأل بعض الطيبين عم بُعلص قال وقد بدت عليه الراحة والطمأنينة:

"دي طيارة الصهاينة، وحلال فيها الموت والسرقة كمان".

***

عم بعلص عاش فقيرًا ومات غنيًّا مقتنعًا بأنه مناضلٌ وطني سيدخل الجنة.

***

الله يرحم الجميع.

٩

البَحْرُ الميِّت

كتاب التاريخ هو الأكثر خيانة ...
ذلك أنه لم يحفظ يومًا عهدًا للجغرافيا.

وتحركت الأرضُ فأغمضت أعينها، وانغلق المضيق الواصل وانحبس البحر، وانفصل عن محيطه المانح النبض لشرايين البقاء، وانحسرت المياه أو جفَّت، وربما تبخَّرت، وتبقى الملح المتقشف إلا من الجفاف، صفحة كالدهر أو أطول، كلها ببياض الملح تتدثر.

من قتل البحر؟ ومن نزع عنه ونس الموج وثورته المتعرجة كالجبال؟، من أفناه حتى ظل كئيبًا ومرتعًا لعفاريت الزمن ودموع الكون؟، البحر يموت؟ أم ينام؟ أم يتوقف وقتيًّا عن وظائفه المقدسة؟،

البحر يفقد النطق وقد يفقد الإبصار، يختنق ظاهريًّا لكنه يعالج السكرات بالصبر على الجفاء".

هكذا استطاع أحد أبناء كوم النور ترجمة الكلمات المكتوبة بلغة القدماء على جدار انتشله الحاج جابر الكنفاني من الردم الخارج من أرض بيته تمهيدًا لإعادة بنائه بالأسمنت المُسلح.

وتطوَّع الشيخ كامل الذي عجز الناس عن تتبع أو مواصلة عدِّ سنوات عمره، بتفسير ترجمة الكلمات المنقوشة على الجدارية.

قال الشيخ بأنه سمع من أجداده ما سمعوه من أجدادهم بأن كوم النور كانت قبل آلاف السنين بلدةً

ساحليةً، يصلها ماء البحر عن طريق مضيقٍ تتسرب من خلاله المياه المالحة عبر قناةٍ كبيرةٍ تمرُّ بأكثر من نصف مساحة البلدة، وهذه الترجمة وتلك الفتوى منحت الكثيرين تفسيرًا وجيهًا لفقر كوم النور زراعيًّا.

جاءت الحكومةُ مُمثلةً في مناديب وزارتيْ الآثار والداخلية للتحفظ على الكشف الأثري المهم وفحصه وتحليل وتدقيق ما صرَّح به من نقوشٍ قابلةٍ للتأويل.

ثمة عداوةٌ دائمةٌ بين الكومونارين والحكومة تأصَّلت بينهم عبر السنين، وثمة انعدامٌ للثقة دفعهم لإخفاء أي شيء يُطل عليهم من تحت أرض كوم النور ليُذكرهم بأجدادهم.

علماء القرية والمتمثلون في الدكتور سليم المدرس في الجامعة والأستاذ صبحي مدرس العلوم في المدرسة الإعدادية طلبا مع مجموعةٍ من الشباب المتحمس عقد اجتماعٍ طارئ لمجلس الأعيان يحضره الشيخ كامل والحاج جابر الكنفاني وبعض المتعلمين لمناقشة أمرٍ جللٍ.

بعد مناقشاتٍ ومداولاتٍ بعضها علمي وبعضها اقتصادي والبعض الآخر يكمن في علاقة كوم النور بالحكومة، اقترح الدكتور سليم قيام وفدٍ من الأعيان بتقديم مذكرةٍ إلى السيد الوزير الدكتور اللواء المحافظ بتبني مشروع عملاقٍ لحفر قناةٍ تمرُّ بها المياه العذبة على أنقاض الممر المائي

التاريخي القديم والذي بدا واضحًا بالتدقيق في خرائط القمر الصناعي، لتسهم الترعة العملاقة في النقل النهري والزراعة والسياحة الداخلية، تمهيدًا لتحويل كوم النور لأرضٍ متحفيةٍ تُحيطها الخضرة من كل جانب وتخترقها مياه النهر الأعظم.

بدا المشروع براقًا حاملًا الخير للجميع، وافق المجلس وقرَّر عرض التفاصيل على الناس بعد صلاة الجمعة في الجامع الكبير.

وبدا الأمر بعد تمام عرضه حلمًا قوميًّا لكوم النور يؤهلها لامتلاك رافدٍ للخلود يصلها بالنهر المقدس ويصبح امتدادًا له، هكذا تتجدد الأمجاد.

قابل المحافظ مشروع الكومونارين بتحفظ وريبة، ووعدهم بتشكيل لجنةٍ فنيةٍ لدراسة صدق النقوش على جدار أجدادهم، وكذا صلاحية التربة، والجدوى الاقتصادية للحكومة من عمليات الحفر ومد مياه النيل عبر مساحاتٍ جديدةٍ.

لم تبعث مقابلة المحافظ على التفاؤل، لكن أهل كوم النور انتظروا رد الحكومة، مرَّ عام أو يزيد، ولم يتلقوا ردًّا، أرسلوا برقياتٍ إلى جهاتٍ أعلى من المحافظ طالبين نتائج البحث وقرار الحكومة.

لم يتحصلوا على ردّ شافٍ من أية جهة، فقرَّر مجلس الأعيان الاجتماع من جديد.

كان اقتراح الدكتور سليم جنونيًّا أقرب إلى الخيال، أشبه إلى العصيان أو التمرد، أغلب الآراء اتفقت على أن اقتراحه قد يُسبب استفزازًا للحكومة وتصعيدًا للاحتقان القديم المتجدد.

طال أمدُ النقاش لأيامٍ توالت، واتسعت دائرة الاستعانة بالخبراء والأثرياء وآراء المخلصين والأصدقاء من البلدات المجاورة والصديقة.

وجاء قرارهم في النهاية بالموافقة على اقتراح الدكتور سليم بالبدء في حفر النهر الصغير بجهود وإمكانيات وتبرعات أهل كوم النور وأهل كل البلدات التي سيمرُّ الرافدُ على أرضها وصولًا لمجرى النهر الرئيسي، مع ترضية ملاك الأراضي التي ستمر عليها القناة الجديدة.

بدا الأمرُ فانتازيًّا في البداية، ولكن مع فتح باب التبرعات بالمال والمجهود والأفكار، ومع افتتاح عائلة الطنانية صندوق التبرعات بما يُعادل نصف ثروتهم، ومع تتابع آلاف الشباب بالتبرع بجهدهم ووقتهم، ومع مباركة شيخ الجامع، والحلم الذي رآه خادم سيدي أبو المعاطي والذي تضمن مشهد كوم النور عائمةً فوق نهرٍ من أنهار

الجنـة، كلهـا عوامـل ارتقـت بـروح النـاس وارتفعـت بسـقف أحلامهـم.

سـنواتٌ مـرَّت بإنجازاتهـا وعثراتهـا والحلـم يرتقـي سـلمًا بعـد آخـر حتـى اقـترب مـن مناطحـة الحقيقـة.

آلاف الأمتـار مـن الحلـم تنتظـر عذوبـة المـاء لـتروي عطـش السـنين وملوحـة المـاضي السـحيق، وتبـدأ التأريـخ لحضـارةٍ جديـدةٍ عـلى أرض كـوم النـور.

وبينـما يجتمـع المهندسـون والمقاولـون مـع مجلـس الأعيـان بحضـور الدكتـور سـليم والأسـتاذ صبحـي ليخـبروا الجمـع بقـرب الانتهـاء مـن أعـمال الحفـر وتمهيـد الطـرق إذ لم يتبـق إلا أمتـارٌ قليلـةٌ ويصلـون بأعمالهـم لنقطـة الوصـل والاتصـال بالنهـر، والتـي يجـب أن تتـم بتصريـحٍ رسـمي وموافقـةٍ كتابيـةٍ مـن الحكومـة.

اقتحمـت الشرطـة بزيهـا غـير الرسـمي الاجتـماع، وتـم القبـض عـلى الجميـع.

طـال اختفـاء الجمـع لشـهرٍ أو يزيـد، تجمَّـع عـشرات المئـات مـن كل الأطيـاف والعائـلات في كـوم النـور وبعـض عائـلات البـلاد المجـاورة، وبعـض الحقوقيـين القادمـين مـن بـلاد العاصمـة، تجمَّعـوا أمـام مبنـى المحافظـة ومديريـة الأمـن، وقـرروا الاعتصـام لحـين الكشـف عـن مـكان الأعيـان ومـن معهـم.

طلب المحافظ ومدير الأمن مقابلة وفدٍ من المعتصمين.

خـرج الوفـد ليبلغـوا النـاس قرارهـم بفـض الاعتصـام والعـودة إلى كـوم النـور وانتظـار الأعيـان.

في اليـوم التـالي عـاد الأعيـان ومـن معهـم سـالمين، إلا مـن قليـل، توجهـوا مبـاشرة إلى الجامـع الكبـير، تجمَّـع النـاس في الجامـع واكتظـت شـوارعه المحيطـة بـالآلاف ينتظـرون منهـم تفسـيراً وحكيًـا وافيًـا.

كبـير الأعيـان يتحـدث إلى النـاس عـبر مكـبرات الصـوت وعينـه زائغـة هنـا وهنـاك تلمـح الآحـاد مـن أفـراد الأمـن السريـين في أرجـاء الجامـع وسـط الجمـوع.

خطابه كان مقتضبًا دامعًا حاسمًا:

"يـا إخوانـا اسـتهدوا باللـه، فيـه دولـة مـن دول الجنـوب عملـت سـد كبـير حجـز معظـم ميـة النهـر عـن بلادنـا، النهـر كلـه مُهـدد بالجفـاف وممكـن كـمان يخلـص خالـص، بـس الحكومـة اللـه يعمـر بيتهـا وعدتنـا إنهـا هـتردم القنـاة بتاعتنـا عـلى نفقـة الدولـة".

وسكت الجميع.... لدقائق.

حتـى اخـترق الصمـت صـوتٌ مجهـولٌ مـن وسـط الجمـوع داخـل الجامـع يهتـف: "تعيـش الحكومـة، تعيش الحكومـة.....".

ويُردد الآحاد وراءه.

١٠

سِيد المأمُور

كتاب التاريخ هو الأكثر عنصرية ...
ذلك أنه لم يتقبل يومًا على صفحاته
سوى البشر.

الموتُ في بلدتنا كوم النور شأنه شأن الميلاد، يبدأ بالتأثر وينتهي بالنسيان.

ثمة اتفاقٌ غير مُعلنٍ أو موثقٍ يُلزم كل الكومونارين بحضور جنازات موتاهم وتجمعات العزاء الحاشدة.

وعندما يرتبط ذكر الموت باسمٍ من أسماء الأعيان، فإن الأمر يتخذ شكلًا من أشكال الحضور المُمنهج والمنظم والأكثر تقديسًا وإلزامًا للجميع.

اعتدنا سماع إعلانات الموت من صوت المؤذن الذي يعتلي درجات مئذنة الجامع الكبير، ليعلو فوق الهامات والبيوت، مُقتربًا من السماء، مُحلقًا على فمه بكلتا يديه إيذانًا بتوثيق الموت على صفحة الإدراك.

هذه المرة يأتينا صوتُ المؤذن مُبللًا بدموعه، مُعلِنًا موت الشيخ فاروق ألوان "خادم مقام سيدنا أبو المعاطي"، المحبوب من الجميع، وصاحب الثوب المُرقع بقصاصات تصطبغ بكل الألوان، حتى أطلق عليه الأطفال والصبية لقب" فاروق ألوان".

لم نعرف له اسمًا غيره، كذلك لم ينتبه أحدٌ لتذكر اسمه الأصلي أو حتى سؤاله عنه، لكن نساء بلدتنا كُن يرددن دومًا بأنه "راجل بركة وليه كراماته".

في كل الأحوال يبقى الموت هو بطل المشهد، وتتنحى الأسماء أمام تعاظم العِبرة وغزارة العَبرات.

ثمة اختلافٌ يظهر جليًّا في جنازات الفقراء ومن ليست لهم أصولٌ كومونارية جلية، يكتفي الناس بالترحم عليهم وتذكر قدرٍ من محاسنهم، ويتركون لنظرائهم من البسطاء والتابعين والطيبين مهمة تشييع الجنازة، وفي الأغلب لا يتم تدشين العزاء.

انتهت صلاةُ الجنازة وبدأت مراسمُ التشييع الأخيرة باصطحاب نعش الشيخ على أكتاف مُحبيه من فقراء البلدة حتى مقابر من لا مقابر لهم والتي أسماها الكوموناريون "مقابر الجامع".

الشيخ فاروق رفض الالتزام بخط السير المعروف والمُحدد سلفًا، النعش يتثاقل على أكتاف حامليه، ويُدير ذاته رغمًا عن محاولات السيطرة عليه وإجباره بالطريق الصحيح.

النعش يُحرك الأكتاف الحاملة ومن ورائها الناس متجهًا صوب حدود البلدة القبلية، يُهرول بهم لبضعة كيلومترات حتى يستقر تمامًا على عتبات مركز الشرطة في بلاد البندر.

مشهد النعش ومن ورائه المئات أمام باب المركز حوَّل الجنازة إلى أزمةٍ حقيقيةٍ للجميع، الناس خائفون من ردة

فعـل العسـاكر، لكنهـم عـلى كل حـالٍ لا يسـتطيعون تـرك الشـيخ فـاروق بمفـرده.

سـاعاتٌ مـن المحـاولات البائسـة وغـير المُجديـة لإثنـاء الشـيخ فـاروق عـن المكـوث عـلى عتبـات المركـز، حتـى ظهـر مـن بـين النـاس رجـلٌ غريـبٌ عنهـم يرتـدي زي الدراويـش يصيـح في الجميـع:

"محـدش يحـاول يـا غلابـه، ألـوان مـش هيرجـع غـير لمـا يخرجلـه راجـل البيـت"، قالهـا الرجـل ثـم اختفـى.

لم يسـتغرق الأمـرُ كثـيرًا حتـى فهـم الجميـع أن المقصـود برجـل البيـت هـو مأمـور المركـز بشـحمه ولحمـه، وهـو التفسـير الـذي بـدا مُرعبًـا في ذاتـه.

اسـتقرت الأنبـاء عـلى مكتـب "البيـه" المأمـور، فـكان رده صارمًـا وقاطعًـا: "مشُّـوا المجانـين دول مـن قـدام المركـز بـدل مـا أخـرج وأضربهـم بالنـار".

الجنـود وصغـار الضبـاط اكتفـوا بإقنـاع النـاس بالاسـتمرار في محاولـة سـحب النعـش بعيـدًا عـن المركـز حتـى لا يتفاقـم الأمـر وتُنتهـك حرمـة المـوت.

حـاول النـاس مـراتٍ ومـراتٍ، ارتـدت الشـمس ثـوب غروبها، وبـدأ الكثـيرون إمـا خوفًـا أو ملـلًا في الانسـحاب والعـودة إلى كـوم النـور، تعـب مـن تبقـى في تنـاوب حمـل النعـش عـلى

الأكتـاف فأنزلـوه مسـتقرًا عـلى عتبـة المركـز مُرددِيـن: "إحنا زهقنا، منك للحكومة بأه يا شيخ ألوان".

هنـا جـاء أمـرُ المأمـور بتحميـل النعـش في صنـدوق عربـة المركـز وإلقائـه عـلى أبـواب مقابـر كـوم النـور، وبينـما يسـتعد العسـاكر لتنفيـذ أمـر قائدهـم حتـى ظهـر الدرويـش الغريـب، رافعًـا يُمنـاه للجميـع آمـرًا بالتوقـف، فأطاعـه الـكل مـن غـير مـبرر، وتجمَّـع النـاس حـول النعـش مـن جديـد.

رآه النـاس يقتحـم أسـتار الموت، يرفـع غطـاء يفصـل الشـيخ ألـوان عـن الدنيـا، يهمـس في أذنـه الميتـة، ويُطأطـئ رأسـه أكـثر ليسـتمع لـشيء لا يسـمعه النـاس ثـم يومـئ برأسـه متفهـمًا، ثـم يعـاود الحديـث الغامـض.

في النهايـة يُعـلي صوتـه هـذه المـرة أمـام النـاس والعسـاكر صائحًـا: "روَّح إنـت بـأه يـا ألـوان وكفايـة كـده، أنـا هتـصرف وهقابلـك بعديـن".

ثـم يُشـير بيـسراه آمـرًا النـاس بحمـل النعـش مـن جديـد، فيحملونـه خفيفًـا كريـش الطـير، ويصحبونـه بـلا أدنى عنـاء حتـى مقابـر الفقـراء.

ويتلصـص البعـض عـلى مـا تبقـى مـن فعـل الدرويـش الغريـب، يرونـه يتجـه إلى داخـل المركـز، يقتحـم مكتـب "البيـه" المأمـور، يُغلـق البـاب، بعـض الضبـاط والجنـود يحاولـون

الدخـول لمنعـه أو طـرده، يجـدون البـاب مُغلقًـا مـن الداخـل، يطرقـون البـاب بحـدَّةٍ، لم يُجبهـم أحـدٌ، يقتحمـون المكتـب بعـد كـسر البـاب فيجـدون المأمـور جالسًـا وحيـدًا ناظـرًا إلى الـلاشيء أمامـه.

أيـام وتـم إصـدار أمـر بنقـل المأمـور مـن نواحينـا، وقيـل بـأن القـرار مبنـي عـلى طلبـه الشـخصي.

تعـددت الحكايـات الشـارحة، وتباينـت الأسـاطير المُفـسرة، لكـن ظـل أهمهـا عـلى الإطـلاق مـا قالـه شـيخُ الجامـع بـأن الشـيخ ألـوان أراد الحـج منـذ شـهورٍ بعـد أن أكمـل بـكلِّ مـا ادَّخـر في حياتـه تكاليـف السـفر، وعندمـا ذهـب إلى مركـز الشرطـة لينهـي الأوراق الرسـمية المطلوبـة، اكتشـف الجنـود بـأن الشـيخ لا يمتلـك شـهادة ميـلاد ولا بطاقـة هويـة، فأخـبروا المأمـور، والـذي بـدوره ركل الشـيخ عـلى مؤخرتـه وطـرده مـن المركـز آمـرًا العسـاكر: "طلعـوا الراجـل المجنـون ده بـره".

وأكمـل البعـض الأسـطورة بـأن الدرويـش الغريـب هـو ذاته سـيدنا أبـو المعاطـي- اللـه يرحمـه- صاحـب أهـم وأقـدس مقـام لأوليـاء كـوم النـور.

قـرَّر البسـطاء نقـل رفـات الشـيخ ألـوان إلى منزلـه الفقـير، وابتنـوا عليـه مقامًـا أسـموه مقـام "سِـيد المأمـور"، ونقشـوا

كعادتهـم الأسـطورة عـلى جـدران البيـت تأريخًـا لكرامـات الشـيخ ألـوان.

في صـدارةِ المقـام علَّقـوا عمامـة الشـيخ البيضـاء منقوشًـا عليهـا بخيـوطٍ حريريـةٍ خـضراء: "عـاش عبـدًا، ومـات سـيِّدًا".

١١

وَمِنَ النُّورِ مَا قَتَل

كتاب التاريخ هو الأكثر أرستقراطية...
ذلك أنه يترفع دومًا عن تدوين
أحداث البسطاء اليومية.

أربعُ سنواتٍ من الانتظار.

الكلُّ يترقب الموعد الذي حدَّدته الحكومة لبدء سريان نور الكهرباء في تلك الأسلاك المخيفة التي زُرعت في كلِّ مكان.

هناك شائعاتٌ تتحدث عن إمكانية تشغيل الراديو مباشرةً بواسطة الكهرباء من دون انقطاع.

البعض يتحدث عن اختراع التلفاز الذي يدخل البيوت فينقلها إلى البندر وينقل البندر إليها، والبعض يحلمُ بتلك الشمس التي ستسطع في جوف العتمة ليلًا فتُحيل الحياة إلى نهارٍ مستمرٍّ لا ينام.

في بيتِنا بدأنا ترتيب الاستعدادات بشكلٍ مختلفٍ، أبي أطلق نذرًا بأن يذبحَ عجلًا للغلابة في أول أيام النور، أمي قررت صنع قُرَص وكعك توزعه في المقابر وهي تُخبر المرحومة أمها بخبر ميلاد النور، تمامًا كما كانت تفعل مع كل مولودٍ جديدٍ لها.

أنا وإخوتي قرَّرنا أن نُحرر صغار العصافير التي اصطدناها من فوق شجرة تستند على جدران بيتنا منذ زمنٍ لا ندركه.

شيخ الجامع الأكبر في قريتنا يعتلي منبر الخطابة ويزف البشرى للجميع: "سوف تبدأ الحكومةُ في ضخ النور على حياتنا بدءًا من صباح الغد".

المشاعرُ متخبطةٌ أحيانًا، متضاربةٌ أحيانًا، الكلُّ يتفق على مبدأ الابتهاج.

العمدة يُشيد سرادق في الجرن الكبير لاستضافة المسئولين القادمين من المحافظة والبندر احتفالًا بهذا الحدث الفريد.

عم أبو عزوز البقال في حيرةٍ من أمره، لا يدري كيف يفرح بمولد النور المُنتظر وفي دخول الكهرباء خسارةٌ كبيرةٌ لتجارته، فهو أكبر مستورد للمبات الجاز وكلوبات النور بأحجامها المختلفة من بلاد البندر البعيدة، أضف إلى ذلك المُستلزمات وقطع الغيار من شرايط وكتاين وإبر وأدوات التنظيف والصيانة.

عم بيشوي أفندي الذي يعمل حاجب بمحكمة البندر ويناديه الناس بسيادة المستشار، يؤكد بأن التلِفزيون سيجلب لنا عبد الناصر بصورته وشحمه ولحمه وكذلك ست الناس والكل أم كلثوم.

عم الشيخ عبد الفتاح، شيخ الكُتاب يتندَّر ساخرًا من الجميع مُرددًا بأن الأمر لا يعنيه لكونه كفيفًا.

تمـرُّ الليلـة الأخـيرة كدهـرٍ بأكملـه، النـاسُ تقبَّلـت بفكـرةِ النـوم فقـط لتسـتدعي الحيـاة الجديـدة القادمـة في أحلامهـم.

وأنـا أقـضي ليلتـي ناظـرًا للمبـة الكهربـاء المظلمـة في انتظـار مخاضهـا المرتقـب، أُحدِّثهـا وتتحـدث إليَّ.

بلدتنـا تصحـو قبـل أذان الفجـر، الرجـال يُصلـون في الجامـع الكبـير، النسـاء يبـدأن في تحضـيرات تفاصيـل الاحتفـال، الأولاد لـن يذهبـوا اليـوم للكُتـاب ولا إلى المدرسـة، حتـى الكبـار قـرروا تأجيـل الذهـاب إلى الغيطـان إلى حـين.

طلع النهار المبروك، ولم تسطع الشمس.

الغيـم يمـلأ سـماء البلـدة، لم يـترك نافـذةً أو بصيصًـا مـن صفـاء تنفـذ منـه الشـمس لتصافـح عيـون النـاس.

يبـدأ الكبـار والمسـئولون في التوافـد، العمـدة يأمـر الغفـر بإطـلاق النـار في الهـواء احتفـالًا.

كل أهـل البلـد يصطفُّـون في سرادق العمـدة الكبـير، الذبائـح تتجمـع ليتـم نحرهـا مـع أول صرخـة حيـاة للمولـود المنـير السـاطع.

فجأةً يسمع الجميع صياح الأطفال:

" هيييييييييييييييه، النور جه... النور جه,... النور جه".

العمـدة لم يُـدرك أهميـة توصيـل ولـو لمبـة واحـدة في سرادق الاحتفـال.

النـاس مُبتهجـون، النسـاء يزغـردن، الأطفـال يلعبـون في كل مـكان، الـكل يصافـح الـكل، المسـئولون يتبادلـون التهـاني مـع العمـدة والأعيـان.

وأنـا أُقـرر الاعتـكاف في بيتنـا، أنظـر مبـاشرةً في لمبـة الكهربـاء، لا أسـتطيع إطالـة النظـرة، أشـعر بالارتيـاح وبالوجـع.

يـأتي علينـا الليـل، الـكل يضـئ والـكل يُضـاء، ولم يسـتطعْ أحـدٌ إطالـة النظـرة في وجـه النـور، أشـاع البعـض بـأن الكهربـاء ليسـتْ إلا عِفريتًـا يتجسَّـد في وهـج النـور.

السـماء الحُبـلى تـأبى إلا أن تشـاركنا احتفالنـا، سـيلٌ مـن قطـرات المطـر الكثيفـة ينهمـرُ فـوق الجميـع محمـولًا عـلى أجنحـة ريـحٍ عاصفـةٍ، تغـرق الأرض بعـد دقائـق، ويحتمـي النـاس بالوقـوف أسـفل سرادق العمـدة والأعيـان، أصـواتٌ مُخيفـةٌ مصحوبـةٌ بوهـجٍ كالنـار تنبعـث مـن أسـلاك النـور، الريـحُ تُطيـح بأعمـدة الكهربـاء، وتسـقط بوهجهـا عـلى الأرض وفـوق سرادق العمـدة، الأسـلاك صعقـت الكثيريـن، وحرقـت الـسرادق، وتحـوَّل الاحتفـال إلى هـرج ومـرج لم نـره مـن قبـل، وانتهـى اليـوم بأكـبر سرادق عـزاء عرفتـه كـوم النـور.

أعـاد النـاس لمبـات الجـاز وكلوبـات النـور، سـادت حالـة الحـزن وخيبـة الأمـل في كل النفـوس إلا عـم أبـو عـزوز البقَّـال، رآه البعـض بعـد صـلاة الجنـازة عـلى شـهداء النـور يُصـلي ركعتـين حمـدًا وشـكرًا للـه.

الحكومـةُ قطعـت تيـار الكهربـاء لشـهورٍ عـن بلدتنـا، وبعثـت خبراءهـا لإصـلاح مـا فسـد.

ظلـت قريتنـا سـنواتٍ ترفـض نـور العِفريـت، وعندمـا أرسـلت الحكومـة أمـرًا للعمـدة بـأن يضـئ نـور الكهربـاء في دوار العموديـة حتـى يعتـادَ النـاس عليـه ويتبعـوا كبيرهـم، تجمَّـع النـاس ورجمـوا الـدوار بالحجـارة، فأرسـل العمـدة إشـارة إلى المركـز، قـال فيهـا:

"النـاس في بلدنـا لسـه قـدام عيونهـم زمـن عـلى مـا تاخـد وتتعـود عالنـور، ربنـا يرحـم موتانـا وموتاكـم".

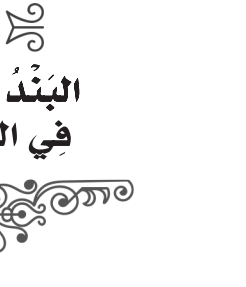

١٢
البَنْدُ الضَّائِعُ فِي الدسْتُور

كتاب التاريخ هو الأكثر حُبنًا ...
ذلك أنه لم يخرج يومًا محاربًا أو ثائرًا، فقط يكتفي
بامتصاص أحبار الغالب والأقوى.

الـكلُّ يائـسٌ، الـكلُّ يائـسٌ، الإحبـاط يُسـيطر عـلى عقـول وأحـلام وطمـوح الجميـع في كـوم النـور، رغبـة عارمـة في الانتهاء تُظلـل كل الألـوان بالسـواد.

رغبـةٌ صادقـةٌ في إنهـاء العـداء المتأصِّـل بينهـم وبـين الحكومـة واسـتبداله باللامبـالاة وعيشـة العـدم.

المـرضُ بـات سرطانيًّا ينتـشر في كلِّ مـكانٍ، تنحَّـى البسـطاءُ عـن الرغبـة في اسـتجداء الحيـاة، توقَّـف الأثريـاء عـن الرغبة في رغدهـا وعـزف الشـبابُ عـن الإقبـال عـلى التعليـم أو الـزواج.

الأطفـال خاصمـوا لعـب الشـوارع، النسـاء توقفـن عـن هوايـة النميمـة وشـيخ الجامـع تغيَّـب للمـرة الأولى في حياتـه عـن خُطبـة وصـلاة الجمعـة.

النـاس قاطعـت نقطـة الشرطـة والمستشـفى الحكومـي ومكتـب البريـد.

وابتكـر الأسـتاذ سـعيد الكرمـاني المثقـف الأول في كـوم النـور والـذي عمـل بالتدريـس بعـض الوقـت قبـل أن يعتـزلَ العمـل ويتفـرغ للبحـث والتنقيـب عـن آثـار وكنـوز كـوم النـور وجمْعهـا في مُجلـدٍ كبـيرٍ يتركـه للأجيـال القادمـة التـي مـن الممكـن أن تفكـرَ ثانيـةً أو تعيـدَ النظـر في ممارسـة فعـل الحيـاة، ابتكـر وسـيلةً جديـدةً للرفـض والتنحـي.

علَّق على باب بيته لوحةً كبيرةً بالخط الأسود منقوشًا عليها: "سجن أولاد الكرماني".

وانتقلت العدوى سريعةً إلى كل بيوت كوم النور، بيوت البلد كلها مكتوبٌ على أبوابها نفس المعنى:

"سجن الطنانية، معتقل العجايزة، زنازين أولاد الكنفاني، قبور البلايطه،.....".

الكارثةُ الأكبر والتي أرَّقت كبار وحكماء كوم النور ودفعتهم للشعور بفداحة ما آلت إليه الأمور ظهرت جليةً حينما اقتحمت الست إحسان الداية دوار العمدة لاطمةً على خدودها:

"ياااا عمدة، ياااا عالم مفيش واحدة بتولد ولا واحدة بتحبل في البلد، بيتي اتخرب يا كبيرنا، ودابر الكومونارية هينقطع".

لم يكن حال العمدة أو الأعيان أفضل كثيرًا من أهل البلد، لكنهم من واقع المسئولية المُلقاة على عاتقهم قرَّروا حتمية إيجاد مخرجٍ يُطل به الناس على الحياة من جديدٍ.

اجتمع العمدة بمجلس الأعيان ومعهم كبار السن والحكماء، الأمر الآن متعلقٌ بقضية البقاء من أساسها.

اتفق الجميعُ على حتمية إيجاد وسيلةٍ لإعادة الأمل في النفوس، وخلق سببٍ جديدٍ للحياة.

المناقشاتُ كلها تمحورت داخل قوالب مُعادةٍ ومستهلكةٍ، ما إن تُطرح على الجمع حتى تُرفض في حينها.

أيامٌ تعدو من وراء أيام، نقاشاتٌ وأطروحاتٌ تُولد لتموتَ بلا جدوى ولا طائل، وبدأ اليأس يتسرب إلى نفوس الجميع.

إلى أن جاءهم صباحٌ يبتسمُ في وجه السماء وباطن الأرض، يقتحم عم عبد المقصود أبو طالب اجتماع العمدة والأعيان وفي يده لوحةٌ حجريةٌ من تلك التي اعتاد الكومونارِيون على استخراجها من تحت الأرض قادمةً من عند الأجداد.

عم عبد المقصود يصيحُ في العِمم المجتمعة:

" الجد باعتلكم الحل، البهيمة نقرت أرض الزريبة وجابت لنا رسالة كومانور".

التفَّ الجميع حول الجدارية الجديدة، ومن فورهم أمروا باستدعاء الأستاذ سعيد الكرماني لفك طلاسم لغة الأجداد، وكانت الرسالة المنقوشة تقول:

"مـن الملـك السـاحر، كومانـور العظيـم، إلى أحفـاده وعبـاده خلـف جـدران الزمـن، لا تسـتعدوا قلوبكـم، أنقـذوا الحـب واتقـوا مـوت القلـوب، اصنعـوا حظكـم بأيديكـم ولا تنتظـروا الذهـب، يـا ابـن العظـماء، اصنـع مجـدك، اقفـل عليـك بابـك، اكتـفِ بمـا تصنعـه يـداك، احـترم تاريخـك ليطيعـك مسـتقبلك".

وصمـت الجميـع، وانحنـت الـرؤوس ناظـرةً لـلأرض، التأويـلاتُ كلهـا مُباحـة، والرمزيـة تبـدو في ذات الوقـت منعدمـةً، لم يتبـق سـوى أن يعكـف الحكـماء عـلى كتابـة دسـتورٍ جديـدٍ يُترجـم للعـوام رسـالة الجـد الأكـبر.

وتطـوَّرت الاجتماعـات لتشـمل مزيـدًا مـن الحكـماء والفقهـاء والمثقفـين، وسـار الخـبر بـين الجميـع، كومانـور الجـد بعـث الأمـل، والكبـار يكتبـون تفاصيـل الوصفـة السـحرية القادمـة مـن عـالم الأجـداد.

اعتكـف المجلـس شـهرًا كامـلًا في دوار العمـدة، متلفحـين بانتظـار النـاس، حتـى سـمعت كـوم النـور النـداء يخـرج مـن أبـواق مئذنـة الجامـع الكبـير:

"اللـه أكـبر، اللـه أكـبر..... يـا أهـل كـوم النـور... الـكل يسـيب الدنيـا ويتجمـع في الجامـع دلوقتـي".

وتجمَّـع النـاس داخـل الجامـع وحولـه حتـى امتـلأت كل الطـرق المؤديـة لأبوابـه عـن آخرهـا، رجـالًا ونسـاء وأطفـالًا،

مسيحيين ومسلمين ينتظرون طوق النجاة القادم من عند الأجداد والساكن في بيان الكبار.

وبدأ العمدة في تلاوة البيان:

"بسم الله نزرع، بسم الله نبني، نُمهد جسور العِلم، نبني حولنا سورًا يكفينا ونكتفي، لا نُشبه أحدًا، بسم الله نرضى، نحكم بيننا بالعدل، بسم الله نعشق الحب ونغرس بذور السعادة:

بعد الاطلاع على رسالة الجد الأعظم وانتهاء مشاورات الكبار والحكماء قرَّر مجلس الأعيان الآتي:

أولًا: بناء سور يناطح النجوم، يلتف حول كوم النور حاميًا ومحافظًا على هويتها وأحلامها يحوي بداخله أكبر آبار السعادة.

ثانيًا: تشكيل مجلس من حكمائنا يفصلون فيما نختلف عليه وما يشجر بيننا بعدل الله دون النظر لجاه أحدنا أو أصله أو انتسابه أو عائلته.

ثالثًا: نشر العلم والوعي بين الجميع واجبٌ قومي على كل متعلمٍ وقادرٍ.

رابعًا: التنسيق بين الكلِّ لتحديد المحاصيل التي تتم زراعتها على أراضينا حتى نصل للكفاف.

خامسًا: لكل فردٍ في كوم النور حق ونصيب في ثروات الأجداد ومكتسبات الأحفاد.

سادسًا: تقديس الأرض واجب، احترام الزرع واجب، الحفاظ على الماء القادم من النهر واجب وصوْن المُنجزات واجب.

سابعًا: كرامةُ كل كومونوري وصوْن حريته وحياته وآدميته واجبٌ قومي لا تفريط فيه.

ثامنًا: يُعاقَب من يخون عهدنا، أو يُكدِّر صفو أمننا وأماننا، أو يُثير الفتنة على أرضنا، أو لا يمتثل لدستورنا، كلٌّ حسب جُرمه وما يتفق عليه مجلس العدل، بلا استثناء أو محاباة.

تاسعًا: يُنشر الدستور الجديد على جدران الجامع الكبير والكنيسة العتيقة ويبدأ العمل به بعد موافقة نسبة لا تقل عن ثلثي الحاضرين من أهل كوم النور.

هلَّل الناس وانطلقت الزغاريد، واتجهت فوهات بنادق الغفر إلى السماء تقتل ما تبقى من يأسٍ تحت الغيم.

وانسحب شيخ الجامع من المشهد تمامًا مُرددًا: "ده كُفر، غضب ربنا هيطول الكل".

دقائق وانسحب راهب الكنيسة، أو من كنا نطلق عليه "شيخ الكنيسة".

اتَّجه شيخُ الجامع وبرفقته شيخ الكنيسة إلى مكتب الباشا الكبير "بتاع الأمن"، وتطابقت مذكرة كل منهما الموجهة إلى الدولة:

"ما يحدث في كوم النور عصيان مدني على الدولة، وفرض نظام أشبه بالحكم الذاتي، وانسياقٌ وراء نقوشٍ وثنيةٍ من شأنها دفع الناس إلى الإلحاد والكفر بالله".

ساعاتٌ بعد لقاء الشيخيْن بممثلي أمن البلاد، فوجئ الكوموناريون بجنود الدولة مدججين بالسلاح والمصفحات يحاصرون دوار العمدة والجامع الكبير، وأبواق الجامع تعلن حظر التجوال وفرض حالة الطوارئ.

واتجه الجنود وقادتهم لاعتقال العمدة ومجلس الأعيان، وصاح الكرماني في الناس:

"البند الساااااابع في الدستور يااااا بلد".

حافظ الكومونايون على صمتهم، تحرَّكوا راسمين بأجسادهم دوائر من ورائها وأمامها دوائر حول العمدة والأعيان لمنع القبض على كبارهم، وبات المشهد مُرشحًا لتصعيد لم يتخيله الأمن ولم يحسب الناس عواقبه.

وتوقَّف الزمنُ معتكفًا لدقائق حتى تتنزلَ الرحماتُ على البسطاء، ظهر الباشكاتب مهرولًا من بعيد يصيح في الناس والجنود:

"اليهود دخلوا البلد، الجيش اتدمر وانسحب، ولادنا بيموتوا، والأرض بتضيع، والريس عايز يمشي".

تمسَّك الزمن باعتكافه للحظات، حتى تحرَّك الجانبان في تزامنٍ مفاجئ، تحللت الدوائر، وانسحب الجنود دون انتظارٍ لأوامر قادتهم، واتجه الجميع إلى دوار العمدة يستمعون لمذياعه.

خرج الناس في البندر والبلاد المجاورة يهتفون للحاكم أن يستمر.

في كوم النور، لم يخرج أحد، تجمَّع الكلُّ في بيت البلايطة يواسون أنفسهم باستشهاد ابن البلايطة وزينة شباب كوم النور في حرب النكسة.

صاح الكرماني: "البند السادس والساااابع في الدستور ياااا بلد".

قرَّر مجلس الأعيان توجه نصف شباب كوم النور للتطوع في صفوف الجيش للثأر لحياة الكوموناري الشهيد.

وبينـما ينـصرف النـاس ظهـر مـن بعيـدٍ شـيخ الجامـع وبرفقتـه شـيخ الكنيسـة، فصـاح الكرمـاني:

"البند التاااااااامن في الدستووووور ياااا بلد".

وهنـا تجلـت الوحـدةُ الوطنيـةُ في أبهـى وأعـدل معانيهـا وأشـكالها، إذ لم يُفـرق النـاس في تنفيـذ البنـد الثامـن مـن الدسـتور الكومونـاري بـين مسـلم ومسـيحي.

" ربنا يرحم الجميع".

١٣

مُكَعَّبَاتُ الْعِشْق

كتاب التاريخ هو الأكثر رومانسية ...
ذلك أنه مقتنع تمامًا أن اللون الأسود
هو الأكثر أناقة للعاشقين.

الحُب في كوم النور لفظةٌ لم نعتدْ سماعها بين الناس، لم يسعَ أحدهم أن يبحث في فحواها، أو أن يتلفظها لأجل امرأةٍ أو أن تتلفظها امرأةٌ لأجل رجل.

وعينا على الدنيا ولم نستخدم الكلمة إلا في مدح الرسول: "حبيبي يا رسول الله".

في بلدتنا هناك مصطلحاتٌ أكثر أُبهةً وقدسيةً:" العيب، الحرام، الأصول، الستر، العِرض، الزواج، الموت.....".

ثقافة الحب حتى بين الأبناء والآباء تختفي دائمًا وراء اللائق وغير اللائق:

"البنت لازم تسترجل علشان متطلعش مايصه وتجيب العار لأهلها، والواد لازم ينشف من صُغره علشان ميطلعش منسون وخايب".

هكذا كنا، وهكذا اعتدنا.

واقعيًّا لم يكن في الأمر شيء خارجٌ عن المألوف، أو ثمة مشكلة تؤرق أحدنا، فأنت لا تشعر بفقد ما تجهله، ولن يستوحشك فراق من لم تقابله أو تعرفه.

شيخ الجامع كعادته حين يطرأ أمرٌ جللٌ ينادينا في غير موعد أذان، صراخ النساء يغطي حواري كوم النور، الجميع متجه ناحية حارة الطاحونة، النميمة تشتعل هذه المرة

أكـثر مـن أي حـدث مـرَّ بعمـري الضئيـل في بلدتنـا العجـوز، ولأول مـرة يُمنـع عـلى الصغـار معرفـة الأمـر أو التلفـظ بـشيءٍ يخصـه.

وكعـادتي أسـبق الجميـع، وأنتقـل إلى مـكان الحـدث قبـل ألسـنة الشـائعات، كـوم النـور تواجـه كارثـةً مـن العيـار الغامـض: "البـت هنـد بنـت الحـاج إمـام النحـاس شـنقت روحهـا فـوق سـطح الـدار وسـط الطيـور".

النسـاء يضربـن كفًّا بكـفٍّ مـع قليـلٍ مـن مصمصة الشـفاه، جميعهـن يعلمـن مـا كان بـين هنـد وزاهـر ابـن نصـار الـكلاف، وجميعهـن يعلمـن رفـض الحـاج إمـام طلـب زاهـر ليـد ابنتـه بسـبب مهنـة أبيـه القديمـة، وبـدأت النميمـة تأخـذ مجراهـا لتفـسر وتتنبـأ وتؤكـد وتنفـي.

في النهايـة لم يمـضِ مـن الوقـت أكـثر مـن سـاعة حتـى بـات كل فـأرٍ في كـوم النـور يعلـم بـأن هنـد انتحـرت عشـقًا لزاهـر الـذي رفضـه أبوهـا.

لم نسـمع مـن قبـل عـن قصـة حـب في بلدتنـا، ولأول مـرة نجـد أمامنـا حالـة انتحـار والتـي تعنـي في قامـوس الديـن والعيـب والحـرام والأصـول "كُفـر صريـح"، أضـف إلى ذلـك لفظـةً جديـدةً في مُعجمنـا هـي "العـار" حيـث الانتحـار والعشـق مجتمعـين.

ولأني الطفلُ الوحيدُ الذي تجرَّأ على دخول بيت الحاج إمام في هذه الأثناء دون أن يمنعه مانعٌ، ولأني المجنون الوحيد الذي تسلَّل إلى سطح الدار ورأى مهابة الموت المشنوق، ورأيت كذلك لونه الملتحف بالعار على وجوه النساء من أهل دار المُنتحرة، فقد تجمَّع حولي المئاتُ لمعرفة ما خفي عنهم، وليدعموا خيالهم بمزيدٍ من وقود النميمة وحكايات المصاطب لأعوامٍ قادمة.

ولأن مفهوم العشق بين الكومونايين بمفهومه المباشر ليس واردًا أو مفهومًا أو حتى يُحترم، فقد انتشر بين النساء ما قد يُشعل الأمر لحدودٍ أكثر بكثيرٍ من مجرد انتحار فتاة، حتى وإن كان الأمرُ برمته غير متعارفٍ عليه أو مألوفٍ في ثقافتنا.

شربات بنت البلايطه بدأت في غرس البذرة الأولى للفتنة:

"وإيه يا ناس اللي يخلي البت تشنق نفسها إلا لو كان حصل بينها وبين الواد ابن الكلايفه حاجه، الموت أحسن من العار، وربنا يستر على ولايانا".

كلام شربات يكفي لأن يُشعل كوم النور عن بَكرة أبيها.

الدم هو الحل.

الشرطة تدخل بلدتنا بعرباتٍ وكثافةٍ لم نعتد عليها، تُحيط بالحارة محل الحادثة، تمنع الجميع من الدخول

إليها أو الخروج منها، تنشر عساكرها كذلك حول منزل المعلم نصار الكلاف، وتُصدر الأوامر بالتحفظ على كلٍّ من الحاج إمام، والمعلم نصار، وإرسالهما من فورهما للمأمور في مكتب ضابط النقطة.

والأمر كان حازمًا وصريحًا على لسان البيه المأمور:

"الموضوع لازم يتلم وميكبرش أكتر من كده، دي أعراض وربنا يستر عالجميع، لازم الكل يسمع الكلام وإلا كوم النور هتولع باللي فيها".

يصل "الباشا الكبير" مدير الأمن، يسمع من الجميع، ويُقرر ما هو مُلزمٌ للجميع:

"العزا هيتاخد بكرة في وجودنا، الكردون الأمني هيفضل لحد الأربعين، كتب كتاب الواد ابن الكلايفه على أخت المرحومه وبنت الحاج إمام الليلة اللي بعد تمام الأربعين، والفرح هيكون في وجودنا، لازم نراعي إن محدش هيفكر يتجوز البنت أخت المرحومة بعد اللي حصل".

سكت الجميع، والسكوت في بلادنا علامة للرضا، أو للقهر.

كلف "الباشا الكبير" المخبرين السريين بالانتشار في كل شوارع وحواري كوم النور وإذاعة شائعة مفادها بأن

الشرطـة وجـدت بجـوار جثـة المنتحـرة رسـالةً مدونًـا فيهـا سـبب الانتحـار.

الجميع بمن فيهم شربات بنت البلايطة باتوا يُرددون:

"هنـد انتحـرت علشـان جالهـا المـرض البطـال، ربنـا يلطـف بالجميـع".

***

صبيحـة يـوم الأربعـين، عُلقـت الزينـات والأنـوار في كلِّ مـكان، كل كـوم النـور مدعـوةٌ عـلى الفـرح، قـرَّر مديـر الأمـن بـأن كتْـب الكتـاب سـيتم في نفـس مـكان الانتحـار فـوق سـطح بيـت الحـاج إمـام والـذي يسـع مـن الحبايـب ألـف.

يضـع الحـاج إمـام يـده في يـد المعلـم نصـار وفـوق أياديهـم منديـل الشـيخ دكـروري المـأذون، والمشـهد يكتمـل ببطاقـة هويـة مديـر الأمـن والبيـه المأمـور شـاهديْن عـلى عقـد القـران وسـط الزغاريـد المزيفـة للعـشرات مـن النسـاء مـن بينهـن شربـات بنـت البلايطـة، وابتسـامات مُجبَرة عـلى وجـوه الرجـال بمـن فيهـم الحـاج إمـام.

لحظـاتٌ وانعـدم اتـزان الجميـع، كل شيء يترنـح، ارتفـع الـصراخ :

"البيت بيقع، البيت بيقع يا إخوانا، إلحقوا انزلوا".

تحوَّلت الزغاريد لصراخٍ ونواحٍ واستغاثات، اختلط الحابل بالنابل، الكلُّ يُحاول في نفس اللحظة الهروب من مخرج السطح الضيق والوحيد، فانسحق الناسُ تحت أقدام الناس ومن بينهم "الباشا الكبير" و"البيه المأمور".

***

المُحصلة النهائية لضحايا وخسائر الزلزال (لم نكن ندرك أن بلادنا من الممكن أن يزورها زلزال):

-انهدم بيت الحاج إمام.

-نجا البعضُ ومات آخرون.

-مات "الباشا الكبير" مدير الأمن، وماتت شربات.

-تغاضت الشرطة عن طلقةٍ مستقرةٍ في بطن "الواد العريس" ابن المعلم نصار الكلاف وقيل إنه خرج ميتًا متأثرًا بجراحه من تحت الأنقاض.

***

ماتت شربات وفي كوم النور ألف ألف شربات.

***

ما زال الكوموناريون يؤمنون بأن الزلزال لم يأت إلا غضبًا من الله على عار بيت الحاج إمام.

١٤

كُلُّهُمْ شُيُوخ

كتاب التاريخ هو الأكثر اختراقًا ...
ذلك أنه لم يطلب من أحدهم يومًا
بطاقة الهوية كشرط للإقامة.

الحياة من دون حكومةٍ أفضل بكثير.

.....

"البداية"

قريتنا بدون ضابط النقطة وخفرائه أكثر أمنًا وهدوءًا، على الأقل بالنسبة للكثيرين.

الفضائياتُ تقول إن الحكومة اختفت بعد انتفاضة الشباب الكبرى، وأن "البيه الظابط" هرب، وأن الناس قرَّروا حماية أرواحهم وممتلكاتهم بأنفسهم.

ما يحدث كان برمَّته حلمًا للبعض، وكابوسًا لآخرين.

شيخٌ جديدٌ للجامع الكبير حلَّ على بلدتنا، ومع مرور العبث تحوَّل إلى مناضلٍ وإصلاحي، وعند حلول الليل تحوَّل إلى رجل أمن.

التف حوله كثيرون من شباب القرية، ببساطة رأى الناس بأن الله قد منحهم أخيرًا سلطة العيش بلا قيد، ورحابة الحياة بلا رقيب، مبدأ الثواب والعقاب عند الشرفاء تحوَّل إلى وازعٍ أخلاقي نابعٍ من الضمير والإيمان.

وحجم الإيمان بتلك المبادئ اختلف من شخصٍ لآخر، ومن فئةٍ لأخرى، وهنا تعملق دور شيخ الجامع الشاب ليصبح أداةً ارتضى بها البسطاءُ لتطبيق عدل الله على

الأرض، ولـن أبالـغ إذا قلـتُ بـأن مكانتـه حينئـذ اقتربـت عندهـم مـن مكانـة الأوليـاء.

الأعيـان في بلدتنـا بـات همهـم الأول التـودد إليـه وتقويـة شـوكته ومـدح حكمتـه وبلاغتـه عـلى صغـر سـنه، اختلفـت كذلـك معايـير الـزواج السـائدة عنـد الأعيـان، فالشـيخ الشـاب بـات عريسًـا فـوق العـادة لبناتهـم.

سـلطة القـوة زالـت وقابلـة دومًـا للـزوال، وسـلطة المـال تـزول مـع زوال القـوة المُسـخَّرة لحمايتهـا، لكـن سـلطة الديـن لا تـزول إذ تسـتمد قوتهـا وأبديتهـا مـن خلـود الـرب وبقـاء العبـاد.

الشـيخ الشـاب تـرك الحديـث عـن أحـكام الديـن، انشـغل بتنظيـم الأمـوال التـي ظهـرت بـلا صاحـب، وتنظيـم اللجـان الشـعبية وكمائـن التفتيـش عـلى أطـراف البلـدة، وأنفـق وقتـه كذلـك في حـصر وإعـادة البضائـع التـي سُرقـت مـن المنافـذ الكُـبرى للتسـوق أثنـاء الهوجـة وأعـاد معظمهـا البسـطاء والشرفـاء الذيـن اسـتمعوا لفتـوى الشـيخ بحرمانيـة مـا اسـتولوا عليـه، حتـى ولـو كان سـاعتها بـلا صاحـبٍ أو رقيـب.

تطـوَّر الأمـرُ بلجـوء النـاس إلى شـيخهم للفصـل في مـا اختلـف عليهـم أو شـجر بينهـم.

واتخـذ الشـيخ مـن مقـر نقطـة الشرطـة المهجـور مقـرًّا للفصـل بـين منازعـات النـاس مـن أهـل القريـة والقـرى المجـاورة.

واتخـذ بعـض المتطوعـين مـن سـلاح الغفـر الـذي تركـوه قبـل هروبهـم أداةً لحفـظ الأمـن داخـل المحكمـة الصغـيرة وكذلـك سـلامة شـيخهم القـاضي.

تجمهـر الكثـيرون أمـام بيـت العـدل النابـت يُطالبـون شـيخهم بالسـماح بتشـكيل قـوةٍ مسـلحةٍ مُقسـمةٍ إلى سـت فـرق، كل فرقـة مؤلفـة مـن عشريـن شـابًّا، يتـم توزيعهـم عـلى حـدود القريـة وطرقهـا الخارجيـة كضمانـةٍ لصـدِّ غـارات الهجامـة والعصابـات الجديـدة التـي تـم تشـكيلها بعـد الهوجـة وهـرب الحكومـة، وعـلى رأسـها عصابـة العـدوي التـي تجـبرت وعاثـت في أراضي بحـري فسـادًا وإفسـادًا.

وافـق الشـيخ، وعكـف عـلى انتقـاء الشـباب المتطـوع لتشـكيل الجيـش الصغـير.

ذاع صيـت البلـدة والأمـان فيهـا، لجـأ إليهـا كل صاحـب مـال يخـشى عـلى مالـه مـن النهـب أو الـزوال.

الأثريـاء يتوافـدون عـلى القريـة واحـدًا تلـو الآخـر، اقـترح أحـد الأعيـان أن يتـم مـن جديـد تشـكيل مجلـس عـرفي مـن

الأعيـان والمتعلمـين في القريـة لفحـص طلبـات اللجـوء الأمنـي وانتقـاء مـن يتجنـس بجنسـية البلـدة.

وافق الشيخ الشاب.

كانـت أول توصيـة للمجلـس الجديـد، أن يتـم تحصيـل ضريبـةٍ شـهريةٍ مـن كل لاجـئ ثـري للإنفـاق عـلى متطلبـات الفـرق المسـلحة والعاملـين ببيـت العـدل وتخصيـص رواتـب ثابتـة لهـم وإنهـاء حالـة التطـوع، وكذلـك..... وكذلـك تحديـد راتـبٍ شـهري للشـيخ الشـاب..... مُغـري.... جـدًّا.

وافق الشيخ.

قـدَّم المجلـس توصيـةً لشـيخهم بتشـكيل مجموعـاتٍ شـبه مسـلحة لحفـظ الأمـن داخـل شـوارع القريـة وحفـظ النظـام فيهـا، وتنظيـم جمـع الضرائـب وتسـليم الرواتـب للآخريـن، ولأنفسـهم.

وافق الشيخ.

ومـع تعـدد المهـام وثقـل الأحـمال، أنـاب الشـيخ عنـه مـن يُصـلي بالنـاس في الجامـع إلا مـن صـلاة الجمعـة، كذلـك أنـاب عنـه مـن يقـود القـوة المسـلحة، ومـن يجلـس في بيـت العـدل، ومـن يسـيطر ويوجـه قـوات حفـظ الأمـن الداخـلي.

اجتمع المجلسُ في جلسة استثنائيةٍ تاريخيةٍ ليقرر حتمية أن يلتفت الشيخ إلى حاله ويكمل نصف دينه ويتزوج.

وافق الشيخ.

اختار بنت كبير اللاجئين، وكانت ليلة لم تشهدها القرية من قبل، وربما حتى الآن.

تنافس الأعيان والوجهاء واللاجئون الأثرياء في نحر الذبائح، وصرف المكافآت على القوات والموظفين، وتزيين الطرقات.

وباتت صورُ الشيخ تُزين الميادين والأشجار وأعالي البنايات.

نائب الشيخ لشئون القوات يظهر مهرولًا من بعيد، يقترب هامسًا في أذن الشيخ:

"الحكومة رجعت".

انتفض الشيخ بابتسامةٍ مدفونةٍ لم يستطع إخفاءها، وسقطت عنه عمامته، انتشر الخبر بين الجموع المُهنئة، واجتمع المجلس بسرعة البرق.

فكرة المواجهة كانت حاضرة، العصيان، فكرة التحايل على الأمر كذلك كانت مطروحة.

اختفى الشيخ.

مجهـولٌ غريـبٌ عـن بلدتنـا يدخـل المجلـس ومعـه فتـوى مكتوبـة وعاجلـة مـن الشـيخ الشـاب بخـط يـده وتوقيعـه:

"عـاد المفـروض، فاصنعـوا المُفـترض... عـودوا إلى قبوركـم... وتضرعـوا"

لم يفهمـوا بشـكلٍ كامـلٍ مغـزى الكلـمات ورمزيتهـا، هـذا إن كانـت ترمـز إلى شيء بعينـه مـن الأسـاس.

***

"النهاية"....

هرب اللاجئون من بلدتنا.

تفرَّق أعضاء المجلس واختفى أكثرهم.

الفـرق المسـلحة وجماعـات حفـظ الأمـن تركـوا سـلاحهم في دار القضـاء وخلعـوا زيهـم الموحـد وتاهـوا وسـط النـاس والـدواب.

ظهـر العـدوي ورجالـه في طرقـات القريـة مـن جديـد بعـد انتصـاف الليـل.

الناس يبحثون عن الشيخ.

البعض يحتفظ بصورته تبركًا ومحبةً.

شـيخ الجامـع الجديـد لا يعـرف سـلفه ولم يسـمع عـن شـيخٍ بهـذا الاسـم أو الوصـف مـن قبـل.

أحدهـم يقتحـم عـلى النـاس جمعهـم الأكـبر صائحًـا بينـما يسـتمعون لخطبـة الجمعـة:

" شـفته، شـفته، أنـا لاقيتـه... الشـيخ لابـس مـيري وبيشـتغل في جهـاز الأمـن".

أخرسـت الصدمـة والمفاجئـة عقـول النـاس وألسـنتهم لدقائـق، نظـروا بريبـةٍ لشـيخهم الجديـد.

تركوا الجامع للشيخ، وبلدتهم للحكومة والعدوي.

١٥

القَرْيَةُ النَّائِمُ أَهْلُهَا

كتاب التاريخ هو الأكثر انحيازًا ...
ذلك أنه لم يقبل يومًا
بإنصاف المهزومين على الحياة.

المرضُ مهبطٌ للموت، والموت منصةُ الإقلاع للروح.

يقرأ تلك الكلمات مجهولة المصدر على قصاصةٍ ورقيةٍ اصفرَّ وجهُها بفعل الحيرة والحسرة والتفكر، ملقاة على أرض غرفة نوم أمه، تحت سرير مرضها.

لا يدري كيف أتت هذا المكان وفي هذا الوقت تحديدًا.

"اللهم اجعله خير"، يُرددها في دخائله ناظرًا إلى جسد أمه الذي أرهقه المرض وتوابعه.

يجتهدُ ليتجنب التفكير في احتمالية اقتراب الأجل، أو أن القصاصة الورقية نذيرُ شؤمٍ وإشارة على قُرب الوداع، وهو يعلم جيدًا أن للفراق لغةً لا يُجيدها إلا كل من مات قلبه أو قُتل.

العتمة تُغطي أرجاء الدنيا، اعتاد ككل الناس في بلدتنا على انقطاع تيار الكهرباء لساعاتٍ خاصةٍ في ليالي الشتاء الممطرة، مياه الأمطار تُتلف أسلاك الكهرباء المعلقة في الهواء واصلةً بين الأعمدة الحديدية والبيوت.

الهاتفُ المحمولُ بلا قيمةٍ هذه الليلة، "الشبكة مقطوعة"، يُقال إنهم يمنعون مظاهرات الشباب المُتأججة في ميادين العاصمة بقطع كل الاتصالات وشبكة الإنترنت.

الأمـر برمتـه لا يعنيـه، الأهـم الآن أن يطمـئن عـلى أن الدنيـا لم تقـرر طـرد أمـه مـن ضيافتهـا، أو أن أمـه ملَّـت العـراك، وقـرَّرت الاستسـلام.

يسـمع مـن وراء النافـذة بعـض الأطفـال يجوبـون الشـوارع متهكمـين عـلى مـا يـتردد مـن أنبـاء منـذ أيـام، يسـمعهم يهتفـون بالتتابـع وسـط المطـر: "الشـعب.. يريـد.. البـت هيـام المايصـه".

يبتسـم ربـع ابتسـامةٍ لسـماعه اسـم هيـام المعروفـة في كل أرجـاء القريـة بعهرهـا وسـوء سـيرتها.

ينتبـه لأمـه تُحـرك شـفتيْها بعنـاء، يرفـع رأسـها فـوق ذراعـه محـاولًا أن يسـتنطقها ليعـرفَ كيـف تشـعر وكـم حجـم الألم.

أخـبره الطبيـبُ منـذ أيـامٍ أن يُخـرج أمـه مـن المستشـفى لتقـضي مـا تبقـى لهـا مـن أيـامٍ أو سـاعاتٍ أو حتـى شـهور في بيتهـا وعـلى سريرهـا، شـيخ الجامـع أفتـاه بـألا يُنصـتَ كثـيرًا لأقـوال الأطبـاء، فلـو أراد اللـه أن يحييهـا مائـة عـامٍ فـوق عمرهـا فسـوف تبقـى.

أمـه تنطـق كلـماتٍ ربمـا كانـت الأخـيرة، يُحـاول أن يتبـين معناهـا أو أن يربـط إحداهـا بأخـرى ربمـا يخـرج بمـا يفيـده في فهمهـا.

يسمعها "أو ويكأنه كذلك" تتحدث إليه "لسانك، بيتك، فتنة، راضية، حبيبي يا رسول الله".

إنها تحتضر، يُمسك بهاتفه المحمول ليتحدث إلى الطبيب، ينتبه مجددًا لانعدام قدرة هاتفه على الاتصال، ليس في بيتهم هاتفٌ أرضي، استغنى عنه الكثيرون بعد انتشار الهواتف المحمولة ترشيدًا للنفقات.

يجوبُ الشوارع راكضًا في اتجاه الوحدة الصحية، آخرون يهرولون في نفس الوقت وفي اتجاهاتٍ مختلفةٍ.

الأطفال يعدلون هتافهم الساخر: "غفرا النقطه.. لابسين جلاليبهم .. هاربين"

الوحدة الصحية خاوية تمامًا، حتى الحارس أغلق بابها بالقفل والجنزير واختفى.

يُواصل ركضه حتى بقالة عم عزوز، يطلب إجراء مكالمة من الهاتف الأرضي، الطبيب لا يُجيب، طبيبٌ آخر لا يُجيب، الثالث يطلب منه أن يأتيه بأمه في المدينة لأنه لن يستطيعَ المجازفة والتحرك بسيارته في ظل الأحداث المُبهمة والفوضى العارمة.

يعودُ إلى البيت ليصحب أمه إلى طبيب المدينة القريبة نسبيًّا من قريتهم، نظر إليها ونظرت إليه، وجدها كمن

تخلصت من كل آلامها وتاريخ مرضها، كانت ضاحكةً مستبشرةً، كانت راضيةً مرضيةً.

احتضنت يده وأقلعت روحُها إلى حيث يرحل الطيبون.

سلاح الغفرا في كل مكان، وسلاح الأشقياء خرج من مدفنه تحت ادعاء حماية الناس ومحاربة من سرقوا سلاح الحكومة، البلدة كلها باتت مختبئةً في جحورها تنتفض مع صوت كل طلقةٍ في الهواء أو ربما كانت في المليان.

جلس محتضنًا خوفه ودموعه وحسرته وجسد أمه.

لم يستطع أن يدفنها ليلتها.

في اليوم التالي استأجر بعضًا من الصبية والرجال ليحملوا معه النعش ويصلوا صلاة الجنازة.

لم يستطع بعدها قبول الثورة أو تقبلها.

١٦
التَّقْوِيمُ الهِجْرِي الكُومُونَارِي

كتاب التاريخ هو الأكثر جنونًا...

ذلك أنه لم يعامل يومًا مدونيه كأنبياء ....

فتلهم:

أُمارس هوايتي المتوارثة في عائلتي جيلًا من وراء جيلٍ، أبي علَّمني ما تعلَّمه عن جدي، ذلك الذي تعلَّمه عن أبيه، عن....، .....، أُمسك بأصابع صغيري في مسيرتي اليومية متجولًا بين طرقات بلدتنا كوم النوم، أتحسس أخبار الناس من دون تنصُّتٍ أو وقاحة، أُلقي السلام على قبور الأجداد، أُراقب السوق، أُوزع التحايا على الغيطان، أتحسس اجتماعات الأعيان، أحتسي قهوتي في مكتب البيه "كوموستابل نقطة الشرطة"، أعودُ المرضى في مشفانا الصغير وأُظهر احترامي للطبيب غير الكوموناري الأصل ثم أحطُّ بكلِّ ما في جُعبتي الدماغية على مقعدي الدائم بمقهى "كومانور"، أُطعم الأوراق التي تعَهدها أبي ومن قبله جدودي، وأوصاني مع الكومانوريين بأن أستكمل مسيرة الحفظ والعناية والتأريخ بها وعليها.

وبعد كل شيء وقبله، أمرُّ على مكتب البريد، أسأل "عم حنطور" الساعي عن أية رسالة تخصُّني، وأستقبل منه كل يوم ذات الإجابة المازحة: "يا ابني بقالك سنين بتبعت جوابات، ومفيش مرة حد رد عليك، وفر سؤالك ولو حصلت المعجزة في يوم من الأيام وجالك رد هجيلك لحد دارك وأبلغك".

الكل يعلم بمن فيهم "عم حنطور" والأغراب المتعاقبون على العمل ببلدتنا بأن الكومانوريين لم يتوقفوا يومًا عن

التأريخ لواقعهم، ولكل زمنٍ أدواته، ولكلِّ عصرٍ ما يستحق ويستوجب التدوين.

***

كانت عائلتي منذ زمن الإله كومانور متعهدةً بالأمر، هكذا كانت وصيةُ جدي الأكبر، أن نحمل الحقيقة على أكتافنا ليخطط الكومانوريون مستقبلهم من حروفِ ماضيهم.

لا يعرف أحدٌ حقيقة النبت الأصيل لعائلتي سوى من حمل شعلة التأريخ منا، المعروف بين الناس في كلِّ عصرٍ أننا ننحدرُ من سلسال العجوز الساحر وزير الإله كومانور، فأسمانا الناس بالعجايزة.

أزعجني كثيرًا أن أعمل على تكديس الأوراق المؤرِّخة لحكايات كوم النور، تمامًا كنفس الشكل والأسلوب الذي اتبعه أسلافي.

قرَّرت أن أختلف، أن أمنح التأريخ جناحًا للتحليق في براح الإدراك، وأن أحثه بأن يحبو أبعد من محدودية المكان والزمان.

أعدتُ صياغة ملمحٍ من تاريخنا القديم، متشابكٍ مع واقعنا القريب، محمولٍ على نعوش الحكي الأدبي، أو لأقل

بـأني هكـذا اسـتخلصت مفهومًـا لفقـه الاختـلاف عـما اعتـاد عليـه أجـدادي.

أرسـلتُ حكايـات تاريخنـا بالبريـد منـذ سـنواتٍ إلى عـددٍ مـن دور النـشر المعروفـة، وإن كنتـم تقـرأون هـذه السـطور الآن فاعلمـوا يقينًـا أن "عـم حنطـور" قـد جـاءني داري ليمنحنـي أول رسـالةٍ غـير كومانوريـة في تاريـخ عائلتـي تحمـل بـين سـطورها إفـادةً بقبـول أحدهـم نـشر ملمـحٍ مـن تاريـخ كـوم النـور عـلى النـاس.

وإن كنتـم كذلـك، فـإني سـأمنحكم انفـرادًا حصريًّـا لم يعرفـه بـشرٌ سـوى المنتخَبـين مـن عائلتـي لتدويـن التاريـخ عـبر مئـات السـنين الفائتـة.

"إن جـدي هـو ذاتـه الرسـول الطائـر، ذلـك الـذي ربَّـاه العجـوز السـاحر وزيـر الملـك ليحمـل رسـالة ربوبيتـه ودعوتـه إلى أهـل السـماء لعبـادة رب الأرض كومانـور".

نعـم، لم ينفـذ العجـوز الوزيـر أمـر كومانـور بإلقـاء الرسـول مـن أعـلى قمـة الجبـل المقـدس ليخفـي عـن النـاس عجـزه عـن أن يكـون إلهًـا، فعمـد إلى مواراتـه عـن الجميـع لسـنوات، واختـار لـه اسـمًا ينتهـي بانتسـابه إليـه، وعهـد إليـه بتلـك المهمـة المقدسـة، كي ينقـل الحيـاة إلى الحيـاة، ويُخفـي الحيـاة عـن المـوت كي لا تمـوت.

وسوف أمنحكم سرًّا إضافيًّا لأني مُمتنٌّ لاهتمامكم بمعرفة سرِّ قريتنا المُمتد:

إن عائلتي تؤمن تمام الإيمان وتعتقد تمام الاعتقاد بأن جدنا الرسول لم يمتْ، وبأنه يمنحنا من حينٍ إلى حينٍ نفحةً من نفحات الماضي المُختبئة تحت بيوتنا، وبأنه سيخرج علينا يومًا من مملكته المخفية- هابطًا من السماء أو مبعوثًا من تحت الأرض- تلك التي انتخبها له العجوز الساحر، لينقذنا من مفهوم الدولة، ويصنع منا وطنًا موصولًا بالسماء غير قابلٍ للتأريخ.

***

تأزمت عَلاقة بلدتنا كوم النور بالدولة، الإرث العدائي بات مع انتشار ألوان التواصل المجتمعي والإعلامي مادةً خَصبة لتهكم الكثيرين من مباراةٍ تتحوَّل أحيانًا لمبارزةٍ لا تتوقف بين السُلطة وفلاحين يُعادون الحكومات على تعاقبها ويرغبون منذ زمنٍ في الاستقلال.

في اجتماعٍ أمني غير تقليدي، ضم كلَّ عناصر الجهات المُراقِبة والحافظة لأمن البلاد، اتخذت الحكومة حزمةً من القرارات الصارمة والتي كُلف جهاز الأمن الأول بمتابعة تنفيذها بكل الوسائل وأهمها:

"تغيير اسم "كوم النور" إلى "كوم الطور"، تجريم التنقيب أو الحفر بحثًا عن آثار الأجداد، إغلاق الجامع الكبير واعتباره من المباني الأثرية، مع تكفل الدولة ببناء مسجد يفوقه أناقةً واتساعًا".

وانتظر الجميع قيام القيامة، فأغلب الظن أن الأعيان والأحرار من الكومونايين لن يرضخوا لقرارات من شأنها طمس الأمل وإحراق التاريخ وتغييب الانتماء والهوية.

الدولة مُمثلةً في جنود الأمن يتخذون مواقعهم في سياجٍ مخططٍ ومُحكمٍ حول قريتنا، المؤسسة الدينية الكبرى تُعلن عن قيام فضيلة الشيخ الأكبر وبصحبته قداسة البابا الأعظم في الدولة بزيارة كوم الطور، وأنباء موجهة تنطلق في الغيطان والأسواق بأن الرئيس سيمرُّ على بلدتنا في طريقه إلى قضاء عطلته بأطراف البلاد الساحلية.

وفي زيارة الرئيس فعْلُ السِّحر عند الجميع، إذ ضجَّت شوارع البلدة بكلِّ الأطياف إلا من أهلها، الأمن يحتل كل ذرة ترابٍ في الأزقة والأجران، شيوخٌ مُعممون، ورهبانٌ يجوبون الشوارع بصلبانهم ينشرون السماحة والمحبة، عمالٌ من كل تخصصات الصيانة والإصلاح والكهرباء ورصف الطُرق يُغيرون ملامح اللوحة الأزلية ويُلونوها بألوانٍ زاهيةٍ لم يعهدها الناس، العُمالُ يؤكدون بقرب الانتهاء من بناء

الجامع الجديد وتجهيزه للافتتاح في يوم الزيارة المُباركة، ويؤكدون كذلك بأنه مُزود بمكيفاتٍ للهواء ،ومبرداتٍ للمياه، وحماماتٍ إفرنجية، ومصابيح كريستالية الصُّنع.

عرباتٌ عسكريةٌ تحمل صناديقَ غذائيةً تُوزع اللحوم والمؤن على الناس على سبيل الإهداء.

***

بدا الأمرُ حتميًّا، فانعقد اجتماعٌ كوموناري فريدٌ وشديد السرية، ضمَّ كبير كل عائلة من عائلات كوم النور مع تجنب دعوة العمدة للحضور، ودُعيت إليه لأشهد وأُدون ما ستسفر عنه المباحثات، اتخذ الأعيانُ القرار الأصعب والأهم والأكثر جرأةً في تاريخ بلدتنا، والمُلزم لكل واحدٍ من الحاضرين بمتابعة تنفيذه في مُحيط نفوذه وتأثيره.

***

مكبِّرات الصوت تجوب شوارع بلدتنا زاعقةً، تُعلن قرارًا أمنيًّا جديدًا:

"يا أهل كوم الطور الكرام، سيتم إغلاقُ مداخل البلدة لحين انتهاء الزيارة والفعاليات، وسيُسمح بالخروج لمن أراده لطارئ يخُصه، لكن لن يستطيعَ أحدٌ من المُغادرين العودة إلى داره إلا بعد انتهاء زيارة الرئيس والشيخ الأكبر والبابا الأعظم".

نفـذ الكوموناريـون تمامًـا بمـن فيهـم الأعيـان قـرار مجلـس الأعيـان.

خرج الجميع.

ولم يرجعْ أحد.

وبقيـتُ عالقًـا مـع أطـلال كـوم النـور "تنفيـذًا لطلـب الأعيـان" أنتظـر زيـارة الرئيـس والشـيخ الأكـبر والبابـا الأعظـم وافتتـاح الجامـع الجديـد.

***

كنـتُ الحضـور الوحيـد الأوحـد مـن الكوموناريـين في احتفاليـة الرئيـس الكُـبرى، فبِـتُّ شـاهدًا عـلى منـح كتـاب التاريـخ الكوموناري لحظـة انتصـاره عـلى قاتليـه، حينـما يحـلُّ الضيـفُ مـن دون مُضيـف.

***

سـوف أمنحكـم الخـبرَ الأخـير، ولتصنعـوا منـه نهايـةً مؤقتـةً لهـذا الـذي بـين أيديكـم:

"أنـا الآن أُمسـك بيـد ولـدي مغـادرًا "كـوم الطـور"، أقصـد "كـوم النـور"، أحمـلُ عـلى كتفـي الصغـير مخطوطـات أجـدادي، ونسـخة أصليـة مـن الحكايـات التـي بـين أيديكـم، مُلقنًـا إيـاه مـا تعلمتـه عـن أبي:

"لا تكتـب التاريـخ في وجـود الملـك، إن الملـوك إذا دخلـوا قريـةً أفسـدوا تاريخهـا، واضطهـدوا مؤرخيهـا".

الآن، أبدأ التقويم الهجري الكوموناري.

لا تقلقـوا، سـأرحل إلى حيـث هاجـر الكوموناريـون، أبـدأ معهـم فعـل التأريـخ سرًّا، حتـى يحـين قـدَر العـودة.

إلى لقـاءٍ لعلَّـه قريـب، يخـرج فيـه جَـدِّي الرسـولُ الطائـرُ مـن مخبئـهِ الزمنـي الموقـوت ليُطهـر التاريـخَ ويُنـيرَ القـادم.

عن الكاتب

الكاتب : مراد ماهر .
مواليد : ١٩٧٩ ....
بكالوريوس هندسة عام ٢٠٠١ .
عضو اتحاد كتاب مصر
عضو أتيليه القاهرة
عضو نادي القصة
مدير ورشة الحواديت للكتابة السردية

صدر له :

- مجموعة قصصية بعنوان (سلك شايك) عام ٢٠٠٨ عن دار أكتب للنشر .
- كتاب سردي شعري بالعامية المصرية بعنوان (حواديت عيل موكوس) مقروء ومرفق بنسخة الكتاب أسطوانة صوتية من إلقاء الكاتب مصحوبة بالموسيقى التصويرية

تأليف الموسيقار د. أحمد الحناوي.. ٢٠١٠ عن مؤسسة شمس للنشر والتوزيع .

- المجموعة القصصية (ثورة الغضب ... صنع في مصر) مارس ٢٠١١ عن دار أكتب للنشر .
- رواية حق اللاعودة عام ٢٠١٤ عن دار النيل العربية .
- مجموعة قصصية (مبارزة قصصية) مع الكاتبة هدير زهدي ٢٠١٦ عن دار شهرزاد للنشر.
- اشترك ببعض النصوص مع مجموعة من الأدباء في كتاب (مائة كاتب وروائي في مئوية نجيب محفوظ) ديسمبر ٢٠١١ تحت رعاية مجموعة من دور النشر والحركات الأدبية المستقلة.
- كتب القصة والسيناريو والحوار للفيلم الروائي القصير (ورد القرافة) .. مايو ٢٠٠٩ .
- نُشر له العديد من الأعمال الأدبية والمقالات والحوارات الصحفية في العديد من الصحف المستقلة والحكومية والمواقع الالكترونية (المصري اليوم – الأهرام – اليوم السابع – الأخبار – روزاليوسف- وشوشة- الجمهورية – مجلة حياتي - .....) .
- بالاشتراك مع فرقة فلسفة المسرحية والفنانة عزة بلبع تم تقديم نصوص حواديت عيل موكوس على المسرح في العديد من الفعاليات الثقافية والفنية.

له تحت الطبع :

- رواية (رواية سالب حياة)
- الجزء الثاني من (حواديت عيل موكوس)

للتواصل مع الكاتب:

MoradMaherWriter

Morad_maher79

Morad.maher79@gmail.com

الفهرس

(١)	الجَدُّ الأوَّلُ يَبْدَأ	٧
(٢)	الكَامِلُ المنقُوصُ جبرًا	١٥
(٣)	تَسْلِيمُ وَتَسَلُّم العَبَث	٢٧
(٤)	امْرَأَةٌ أَحْيَاهَا الدَّم	٣٧
(٥)	العَتَبَات	٤٥
(٦)	اللَّعْنَة	٥٥
(٧)	أَوْلِيَاءُ كَاذِبُون	٦٣
(٨)	صَيَّادُ الطَّائِرَات	٧١
(٩)	البَحْرُ الميِّت	٧٩
(١٠)	سِيد المأمُور	٨٧
(١١)	وَمِنَ النُّورِ مَا قَتَل	٩٥
(١٢)	البَنْدُ الضَّائِعُ فِي الدسْتُور	١٠٣
(١٣)	مُكَعَّبَاتُ الْعِشْق	١١٥
(١٤)	كُلُّهُمُ شُيُوخ	١٢٣
(١٥)	القَرْيَةُ النَّائِمُ أَهْلُهَا	١٣٣
(١٦)	التَّقْوِيمُ الهِجْرِي الكُومُونَارِي	١٣٩

محمد عبد الصمد
تربيا

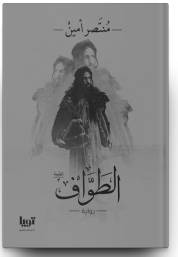
منتصر أمين
الطواف
رواية
تربيا

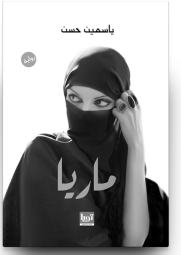
ياسمينة خست
ماريا
تربيا

عرايا الروح
رواية
حلا المطري
تربيا

أحمد عويضة
وشتاء لتراه
مجموعة قصصية
تربيا

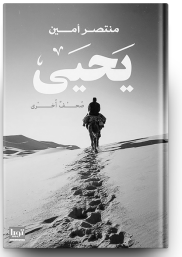
منتصر امين
يحيى
شتاء آخر
تربيا

ملكوت
رواية
شريف عبد الهادي
تربيا

معرض الكتاب
اغتيال بحواجع أدبية
رواية
عبدالرحمن جاويش
تربيا

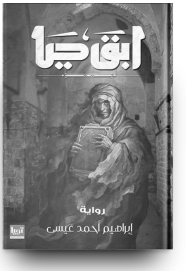
ابق حيا
رواية
إبراهيم أحمد عيسى
تربيا

Subject
الورقة
Book!
اليوم الخامس عشر

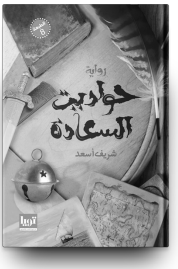
رواية
حواديت السعادة
شريف أسعد

شريف أسعد
#اعترافات_جاسدة

الرَّاحِلُونَ
أحمد إبراهيم مُوسَى

الطريق إلى
السيدة العجوز
محمد آدم

يالطو وخاطه وتاب
أحمد خاطف

د.محمود طه
الخروج من القرص

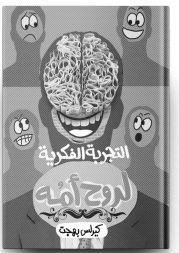
التجربة الفكرية
لروح أمه
كيرانس بوجت

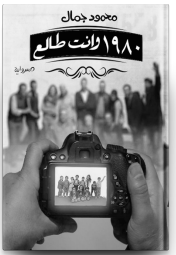
محمود جمال
١٩٨٠ وانت طالع
رسوايا

دار تويا للنشر والتوزيع